تهامة
TIHAMA

الكتاب العربي السعودي ٢٧

حمزه شحاته



الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

۷۸۶

بسم اللہ الرحمٰن الرحیم

النـاشـر
تهـامـة
جـدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

الرُّجُولَةُ عِمَادُ الْخُلُقِ الْفَاضِلِ

سادتي – إخواني

[illegible]

✽ الصفحة الاولى من مخطوط كتاب الرجولة بخط يد المؤلف.

مقدمة (١) :

بقلم الأستاذ عزيز ضياء

اخوانى من الشيوخ يذكرون المحاضرة التى القاها حمزة فى جمعية الاسعاف فى شهر ذى الحجة عام الف وثلاثمائة وتسعة وخمسين .. ولاشك انى سعيد الحظ حين تلقيت هدية الدكتور منصور ابراهيم الحازمى وهى الجزء الأول من كتابه : (معجم المصادر الصحفية) عما نشر من المقالات والقصائد والبحوث فى جريدة ام القرى فى الفترة من سنة الف وثلاثمئة وثلاثة واربعين الى سنة الف وثلاثمئة وخمسة وستين ، واجده يمدنى بما لم يكن فى الوسع ان اذكره اذ يقول فى الصفحة الثانية والخمسين : (اما قلة المحاضرات قبل عام ١٩٣٦ م فيرجع فيما يبدو ، الى عدم وجود رابطة تجمع بين الناشئة من الأدباء المثقفين) ثم يقول : (ولعل هذه الرابطة قد بدأت تبرز الى الوجود عندما تأسست جمعية الاسعاف الخيرى بمكة المكرمة عام الف وثلاثمئة وخمسة وخمسين ، وهى السنة التى شهدت بدء النشاط الثقافى فى القاء المحاضرات العامة ، وقد رأينا جمعية الاسعاف تجتذب الكثير من الأدباء والمفكرين والأطباء والعلماء ... ولاشك ان من يؤرخ للحركة الثقافية فى البلاد السعودية ، لا يستطيع ان ينسى الدور المهم الذى لعبته هذه الجمعية الطبية الخيرية ، والتى تأسست بعد سنوات قليلة من تأسيس الحكم

---

(١) هذه المقدمة أخذت من كتاب « حمزة شحاته .. قمة عرفت ولم تكتشف » للأستاذ عزيز ضياء الصادر فى سلسلة المكتبة الصغيرة التى يصدرها الأستاذ عبد العزيز الرفاعى ، وقد صدر برقم (٢١) عام ١٣٩٧ هـ

السعودى فى الحجاز).. وينهى الدكتور منصور ابراهيم الحازمى هذه الملاحظة بقوله : (الطب ، والدين ، والقضايا الاسلامية ، والتاريخ والتراجم ...) ثم يضيف : (وهناك بعض المحاضرات التى تناولت موضوعات اخرى كالأدب والصحافة والاجتماع والاقتصاد والتعليم ولكنها قليلة اذا ما قيست بعدد المحاضرات التى تناولت الموضوعات الرئيسية الثلاثة التى ذكرناها) وفى الصفحة التاسعة والعشرين بعد المئتين ، ضمن قائمة (المحاضرات) يذكر الدكتور منصور ما يشير الى ان جريدة ام القرى قد نشرت (خبرا) عن محاضرة القاها (حمزة شحاته) بعنوان (الخلق الكامل عنوان الرجولة).

ولم تنشر هذه المحاضرة كما سبق ان اشرت ورفض حمزة يرحمه الله ان يصدرها فى كتاب ، مستقلة او مع أى مجموعة من شعره او نثره ... ولكنها ظلت المحاضرة التى لم ينسها احد سواء ممن سمعوها منه او سمعوا عنها ولعلهم ما يزالون يسمعون عنها حتى اليوم .

وهنا لابد من وقفة قصيرة ، نلتمس بها نوعا من وزن الأسلوب الذى كتب به حمزة هذه المحاضرة وتمعن مستوى الأستاذية فى اللغة ، نحوا وصرفا ، ومفردات ، وقدرة على اداء المعنى وانتقاء الألفاظ التى يراعى فيها دقة الجرس الموسيقى فى اللفظ بالنسبة للجملة ، ثم منهج التحليل للموضوع الذى عالجه وهو كما أراده لاكما اقترح عليه وكما نشرت عنه جريدة ام القرى ... فقد عدل عن (الخلق الكامل عنوان الرجولة) واختار (الرجولة عماد الخلق الفاضل).

والتماس الوزن هنا يعود بنا الى ما قلته من ان حمزة يبدو وكأنه قد ولد ودرج على تراب هذه الأرض قمة شامخة ... ولا اقول ولد عبقريا ، اذ خصيصة العبقرى ، ان يولد بطاقة قد تبكر فى الظهور وقد تتأخر الى ان يتاح لها التفجر والاندفاع بينما حمزة ، قد بدا منذ عرفه عشاق الحرف والكلمة قمة لا تدرى كيف تكونت ...؟

ولد حمزة ، فى عام الف وثلاثمئة وثمانية وعشرين والقى هذه المحاضرة ، فى عام الف وثلاثمئة وتسعة وخمسين فهو يومها قد اتم الثلاثين من عمره .... ونحن نعلم ان هذه المحاضرة ليست اول اعماله ، فقد سبق ان ذكرت انى عرفته فى عام الف وثلاثمئة وواحد وخمسين ، أى يوم كان لا يزال فى الثالثة والعشرين ويعرفه قبلى الأستاذ (عبد الوهاب آشى) والأستاذ (محمد سعيد عامودى) والأستاذ (محمد حسن عواد)... وكلهم عرفوه شاعرا فى الذروة وناثرا يمتلك ناصية اللغة والأسلوب امتلاك استاذية تعمقت فنها وعلمها فى الأمهات من المصادر .

ومرة اخرى ، اجد نفسى مضطرا ان اتساءل متى ؟ وكيف ؟ أتيح له ان يبلغ هذه المرتبة التى نفترض انه بلغها فى العشرين .. ومن المفروض انه لم يكن الوحيد الذى تخرج من مدرسة الفلاح ولم يكن ايضا الوحيد الذى ابتعث الى الهند ، لم يكن الوحيد الذى قرأ ما قرأناه وظللنا نقرأه من مصادر الثقافة وينابيع الفكر .

يستطيع من يتفرغ ، لبحث ادب حمزة ، فيما نرجو ، ان يجمع من شعره ، ونثره ، وعلى الأخص رسائله ، ان يجيب بما اسميه اكتشافا للقصة ، التى اقدّم اللمحة عنها فى هذا الحديث ، واللمحة ، لا اكثر ولا اقل .

بلغ عدد صفحات هذه المحاضرة مئة واحدى وعشرين صفحة ، بخط يده على ورق مقاسه (متوسط) واستغرق القاؤها اكثر من اربع ساعات وقوطعت بالتصفيق اكثر من ثلاثين مرة واجتمع لسماعها عدد من الناس قل ان اجتمع لسماع اى محاضرة سبقتها فى جمعية الاسعاف .. فماذا فى هذه المحاضرة ؟؟

لا يتسع الوقت لعرض الكثير .. ولكنى استطيع ان اقدم النتف ، والقطوف التى تلمح ، او تلقى بعض الضوء على الكثير مما فيها مما لا اجد له اسما اكثر او اقل من انه فكر ، وادب ، وفلسفة ، وفن .

ويبدأ المحاضرة بقوله : (عندما يكون الاقدام على المخاطرة ضرورة .. لا يعد شجاعة).

ويعلق على هذه الضرورة، فيقول : (للضرورة فى حساب الحياة ابعد الأثر ، والتطور ما لعب دوره الخطير فى تكميل اسباب الحياة الاجتماعية الا على اساس الضرورة الحافزة.)

ويقدم اسبابا لعدوله عن العنوان الذى اقترح عليه للمحاضرة او لموضوعها فيقول :

(ان حديثى فى الواقع ، ولا اسميه محاضرة ، عن الخلق الكامل كعماد للرجولة ، لا عن الضرورة كأساس للخلق الفاضل ، او كعماد للرجولة ، لكنى اخترت ان أمهد لهذا الحديث هذا التمهيد ، وان ازحزح العنوان المقترح عن وضعه قليلا فيكون (الرجولة عماد الخلق الفاضل) لا الكامل ، فما يزال الكمال نشدة الحياة المطولة ووهمها الذى تنساق ابدا فى طلابه . وما دامت مراحل الحياة تمتد ولا تنتهى ، وقوافل الأحياء تسير ما يثقل خطاها الزمن الجاهد ، وما دام التغير الدائم ، دأب الحياة وسبيل ما فيها ، فهل نقول ان شيئا كمل ، قبل ان يوفى على غايته ويبلغ تمامه ؟) .

ويضيف ، وكأنه يعتذر عن (زحزحة العنوان) فيقول :

(وانا لست اعرف معنى لهذه الحرية ، بيد انى الفت ان اطلق لفكرى عنانه .. فهذا عندى اخلق ، بان يجعلنى اكثر شعورا بحياتى ، وفهما لها ، وأنا طامع بعد ، فى ان تحمدوا لى نتائج هذه الحرية ان شاء الله).

ثم يفلسف الفته فى اطلاق العنان لفكره فيقول :

(لا تكون النظرة الى حقائق الحياة والفكر خالصة الا من اناس يرون انفسهم فوق قيودها وقوالبها ، وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة ، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة ، لأن حظ الصفات والمبادىء والنزعات يرتبط دائما بحظ الداعين اليها والمتصفين بها من النجاح . هذه حقيقة فطن لها الناس من القدم فقالوا كثيرا ما معناه :

الناس من يلق خــيرا قائلـون لـه

ما يشتهـي ولأم المخطـىء الهبـل

ليس هذا حظ الأحيـاء فحسـب ، بل حظ المبـادىء والأغانـي والنظريـات ، والفضائل وحظ موقفى بينكم الليلة ....).

ويمضى فيقول :

(وانا اريد التجربة ، والتعرية كباحث ، لا كمحاضر ، فانى لو قصرت كلامى على الرجولة او على الخلق الفاضل ، خشيت ان يتحول حديثى الى موعظة ، لا تعدو ان تكون تمدحا حماسيا بالفضائل دون تحليلها وردها الى مصادرها ، وتحديد قيمها ومعاييرها ، واثرها من صميم الحياة ، وعلاقتها بالنفوس).

والتجريد مبدأ قديم لى ، وهو مرضى الذى لا اشفى منه ، عرفنى به من عرفوا طريقتى فى الحياة ومن قرأوا نظراتى القديمة فى الخير والشر ، وفى الفضائل والرذائل ، وفى الحب ... وفى الشعر).

(فاذا ظن ظان ان فيا اقوله الليلة خلطا او اطلاقا او شذوذا ، فانما يكون هذا الظن معقولا لا اضيق به ، فهو عندى شبيه بالنظرة الى مجهول لم يتكشف ، لا الى مجهول اخذ سبيله فى التكشف والوضوح).

ويمضى بعد هذه المقدمة القصيرة ، فى ما يشبه التحليق تارة ، والغوص تارة ، وراء موضوعه ، بحيث يرينا دنيا مترامية الأطراف . تلتف فيها خمائل الفكر ، وتتفتح فى ساحاتها مساتير الحقائق وتتلألأ فى سمائها وافلاكها انهار من الضوء تمعن فى ابعـاد سحيقة ، قد تحتاج لاستيعابها الى منظار مقرب يسعفك بالتفاصيل ومقومات البنـاء والتكوين وتسرف فى الاقتراب والاشعاع ، حتى تبهر البصر ، وترهق او تزلزل ما استقر فى الذهن من القواعد والأسس للكثير من المسلمات والبدهيات .

وقد رأينا فى هذه المقدمة على قصرها ، مستوى الأسلوب ، الذى سبق ان تحدثت عنه ، وما اظن ان احدا من الكتاب فى المملكة ، وفى غيرها ، تلك الأيام قد بلغ هذا الأوج من الجمال والترابط وتوخى جرس اللفظ فى اتساقه مع الجملة ، وهذا الى الأستاذية ، التى لا تقف عند حد المعرفة المتمكنة من اللغة ودقائقها ومن نحوها وصرفها ومناهل البلاغة ومآتيها ، وانما تتخطى كل ذلك الى فنية الأستذة اذا جاز التعبير .

مسيرته الثقافية

ونعود الى الخلفيات الثقافية فى حياة الشاعر ، وفى حياة رصفائه فى تلك الأيام .. ولا اجد بدا من وقفة قصيرة عند لطفى السيد باشا ، فقد كنا نتسامع بعبقريته وعلمه وفضله على العلم والعلماء والأدب والأدباء ، والفكر والمفكرين .. كما كنا نتسامع عن ترجمته لكتاب (السياسة) لارسطو طاليس .... عن الترجمة الفرنسية لبارتى سانتيهيلير .... فنتمنى ان نرى هذه الترجمة مطبوعة .. ولم تطبع الا فى عام ١٩٤٧ واذكر انى كنت فى القاهرة وكان حمزة رحمه الله قد استقر فيها ، فما اسرع ما أخذنا نتدارسه معا .. فينقضى الليل ، وينام من فى البيت من الأهل والأطفال ... ويستيقظون فى الصباح ليجدونا ما نزال كما تركونا فى الساعات الأولى من الليل .. واطباق الرماد طافحة باعقاب السجاير ، واكواب الشاى تتثاءب فراغا وحلق كل منا يتقصف جفافا ، فلا نكاد نلمح من استيقظ ، حتى نستنجده بطلب شاى جديد ، لنبدأ او لنواصل الحديث عن ارسطو ، وعن ذلك الغرض البعيد ، الذى استهدفه (لطفى السيد) من ترجمة هذا الكتاب بالذات ومقدمة سانتيهيليرفيه على الأخص ... بل ذهبنا الى ان لطفى السيد لم ينقل الكتاب الى العربية ، الا لينقل اليها هذه المقدمة ..

وادع جانبا تلك الدفقة الكبيرة من القصص التى نشط لنقلها الى اللغة لعربية اساطين فن الترجمة فى مصر ، من امثال المرحوم الأستاذ (ابراهيم عبد القادر المازنى) فى قصة (ابن الطبيعة) للكاتب الروسى المغمور (هاتزبياتشيف)، وقد نقلها المازنى عن الانجليزية ، ولهذه القصة فى حياتنا ، تلك الأيام اثر لا ينسى - فقد كان يطيب لحمزة رحمه الله ، ان يسمى كلا منا بأسماء ابطال القصة ، ويختار لنفسه بطلها الأول او الأظهر الذى تدور حول حياته القصة كلها ، وهو « سانين » ، واختار لى اسم « يورى » ولست اذكر بماذا سمى بقية المجموعة من الأصدقاء . وقد نشر المازنى - بعد أكثر من عشر سنوات قصة بعنوان ابراهيم الكاتب اتهمه بعض النقاد بانه قد سرقها من (ابن الطبيعة)، وقد قرأنا القصة ، واستسخفت انا رأى هؤلاء النقاد اذ لم يكن فى وسع المازنى ان يستغنى او ان يتخلى عن اسلوبه فيما يكتب ، من ادبه أو من الآداب التى ينقلها الى العربية ، وكانت وجوه الشبه بين القصتين ، تنحصر فى هذا الأسلوب الرفيع الذى عرف به المازنى رحمه الله .

ومن القصص التى لا بد ان تذكر ، وتعتبر من الأسس فى خلفياتها الثقافية ، قصة (تاييس) و(الزنبقة الحمراء) لاناتول فرانس ، وكان مما دار بينى وبين (حمزة) عن اناتول فرانس فى هاتين القصتين ، ان انسانية فرانس ، ومعالجته لموضوع العهر والطهر ، بالنسبة لتاييس ، والراهب بافنوس ، قد انطوت والتفّت او هى اندثرت فى الجو الخاص الذى تدور فيه احداث الزنبقة الحمراء ، وان حريته المطلقة التى مارسها فى تصوير (تاييس) الغانية ، ثم (تاييس) القديسة قد جمدت جمود الكريستال على الموائد المترفة ، وجمود الماس واللؤلؤ على صدور النساء فى حفلات العشاء التى يدور حولها الأبطال فى (الزنبقة الحمراء) ومع ذلك ، فلم نكن نملك اعجابنا باسلوب فرانس وتصويره الرائع للصراع الرهيب الذى ظلْ يعانيه الراهب (بافنوس) مع افاعى الجنس التى تنهش صدره ، والذئاب الجائعة فى اعماق نفسه المحرومة من مطلبها الغريزى .. كان صورة اخاذة ، عبقرية الملامح والألوان والسمات ، لقدرة فرانس

كفنان منطلق لا سبيل الى ان تقف امام ريشته وافكاره اية سدود او قيود . واذكر كيف كنا نعض اصابعنا اسفا ، على جهلنا باللغة الفرنسية ، لنقرأ المزيد مما كتبه (اناتول فرانس) ولم يطل بنا الانتظار ، فقد ترجم له من لا أذكر اسمه الآن ـ وليس من اعلام الترجمة ـ كتابا باسم (حديقة او مائدة ابيقور) فيلسوف اللذة المعروف ثم وقع فى ايدينا كتاب آخر للأمير (شكيب ارسلان) عن (اناتول فرانس فى مباذله) وبذلك توهمنا اننا قد استكملنا بعض ما كان ينقصنا عن الالمام المعقول بأدب (اناتول فرانس)، ومن المؤسف اننا لا نجد من يهتم باعادة طبع هذه الكتب اليوم ، لنعود الى شرائها ، بعد ان بعتها فى مزاد .

واذ اذكر هذه القصص ، لا انسى ، ولا ينسى رصفاؤنا الشيوخ ، رواية نقلهاالى العربية (طانيوس عبده) تحت عنوان (اهوال الاستبداد) لكاتب روسى نسيت اسمه الآن ، ثم (انا كارينينا)لتولستوى ولم تكن قصة (الحرب والسلام) وهى من اشهر اعمال تولستوى قد نقلت الى العربية بعد ، ولكن لم يفتنا ان نقرأ ما يكتب عنها فى المجلات والصحف وعن تولستوى نفسه ، وما زلت اذكر كيف كان تطلعنا الى انتاجه يزداد ويحتدم وبالأخص يوم قرأنا كلمة نسبت الى (بير نارد شو) يقول فيها عن كتاب لم ينقل إلى العربية باسم (ما هو الفن ؟) لتولستوى : (ها نحن نسمع صوت استاذ بحق)... وبالتتبع وبما كانت تحفل به مجلات تلك الأيام ، عن اعاظم كتاب الأدب العالمى ، استطعنا ان نكون حصيلة لا بأس بها من المعلومات والأفكار عن كثيرين ممن ذكرت وممن لا يتسع الوقت لذكرهم فى هذا الحديث .

اما ادب المهجر ، وعلى الأخص من أدبائه (جبران خليل جبران) و(ايليا ابو ماضى) و(ميخائيل نعيمة) فليس بيننا من ينكر اثرهم فى بداية مراحل هذه الثقافة الذاتية ، ومثل هذا الأدب وفى بداية تلك المرحلة ايضا ، يمكن ان نذكر كتب (مصطفى لطفى المنفلوطى).... ولكن ما كدنا نوغل فى الأمهات من كتب الأدب

العربى ، وفى الروائع من المنقول الى العربية من الأدب العالمى ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر فى مصر صاحبة الفضل الكبير ، فى هذا النقل ، حتى أخذنا نشعر بان ادب المهجر يمكن ان يوقظ المشاعر ويوجهها نحو أجواء الفن ، ولكنه لا ينميها ، ولايبنى العضلات الفكرية القوية ، وان ادب المنفلوطى يمكن ان يصلح للشداة والناشئين اذ يغرى بالقراءة ، ويعين على تكوين محصول قوى احسن المنفلوطى اختياره من مفردات اللغة العربية ، التى يسهل تناولها وربما هضمها فى قصة كما جدولين او سيرانودى برجراك ، بينما يتعذر هذا الهضم على الشادى والناشىء ، اذا ما قرأ « البيان والتبيين » للجاحظ ، او « مقدمة ابن خلدون » او اى كتاب لابى حيان التوحيدى .

اطلت دون شك ، فيما يبدو استطرادا ، وجنوحا عن الحديث عن القمة التى لم تكتشف ، ولكنى اتحدث عن مسيرة ثقافية عشناها مع الفقيد فى ظروف ، كانت فورة الشباب ، ونوازع الطموح ومشاعر الايمان بحق الوطن علينا ، تخفف من عسرها ووعثاء الرحلة ووعورة مسالكها ، مع ضعف الموارد وانعدام اسباب الدعة والرخاء ... بل وانعدام الضوء الذى نسهر به عاكفين على القراءة والبحث والمتابعة باستثناء (الفانوس الهندى) الذى نفضّل الحجم الصغير منه ، لندخله معنا فى « الناموسية »، رغم شدة الحر ، واحتباس النسمة ، هربا من البعوض ، واصرارا على القراءة والدرس مع عدم التخلف عن العمل فى الوظائف التى نشغلها فى اوقات الدوام المقررة ، وقد كانت تعرف البداية فى الصباح ، ولا تعترف بالنهاية ، ما دام هناك عمل يجب ان يؤدى ، ولو استغرق ساعات طويلة من الليل . ولا استطيع ان اؤرخ لدخول ما يسمى (الأتريك) فى حياتنا ولكنى اذكر فرحتنا به حين اصبح من الميسور شراؤه ، بفتيلته وغازه ، وعملية نفخه وشحنه بالهواء ، ولا اخفى اننا كنا نشعر بالزهو ، حين نستعد به لاستقبال الزائرين والضيوف ، ولعل انتفاخة الزهو ونحن نراه يضىء (المجلس)

كانت لا تقل عن انتفاخ الأتريك نفسه ، مع احساس باننا ـ والحمد لله ـ قد اخذنا طريقنا الى ما كنا نسمع عنه ، ولا نرى له اثرا من حضارة القرن العشرين ..

وبعد .. فقد قلت ان حمزة شحاته يبدو ، وكأنه قد ولد قمة منذ درجت قدماه على تراب هذه الأرض ، وللقارىء ان يسمى هذا مبالغة واسرافا فى التقدير ، ولا انكر ان التعبير ينبض بهذا المعنى ولكن عندنا من الشواهد ، ما يجعلنا نتساءل ونحن نستعرضها : متى ؟؟؟ وكيف ؟ استطاع حمزة ان يهضم كل الذى هضمه وتمثله من ثقافات ، مصادرها التراث العربى القديم من جهة ، ثم ما شهده الأدب العربى من تطور خلال فترة يمكن ان تحدد بما لا يقل عن قرن من الزمان من جهة اخرى .

صحيح انه كان يقرأ مانقرأ .. وصحيح ان ما كان يصل الى ايدينا من الكتب ، كان يصل اليه ايضا ولكن ، كيف تأتى له ذلك النضج العقلى والفنى وهو بين مرحلة الصبا الغض والشباب فى فجره دون ضحاه ؟

عزيز ضياء

سادتي ــ اخواني

عندما يكون الاقدام على المخاطر ضرورة ، لا يعد شجاعة ، ومعنى هذا ان النسبية تدخل فى حساب الحقائق الفكرية .

والضرورة هى التى تدفعنى اليوم أن أقف منكم هذا الموقف على ايمانى بضآلة شأنى فى ميزان الفهم العام .. فما كان يسعنى أن أرد لجمعيتكم المخلصة طلبين فى عام واحد .

وللضرورة فى حساب الحياة أبعد الأثر ، ونعتقد أن التطور ما لعب دوره الخطير فى تكميل أسباب الحياة الاجتماعية الا على أساس الضرورة الحافزة .
إن حديثى فى الواقع ولا أسميه محاضرة ، عن الخلق الكامل كعماد للرجولة ، لا عن الضرورة كأساس للخلق الفاضل ، أو كعماد للرجولة ، لكنى اخترت أن أمهد لهذا الحديث هذا التمهيد ، وأن أزحزح العنوان المقترح عن وضعه قليلا فيكون « الرجولة عماد الخلق الفاضل » لا الكامل فما يزال الكمال نشيدة الحياة المطولة ، ووهمها الذى تنساق أبدا فى طلابه . وما دامت مراحل الحياة تمتد ولا تنتهى ، وقوافل الاحياء تسير ما يثقّل خطاها الزمن الجاهد ، وما

دام التغيير الدائم دأب الحياة وسبيل ما فيها ، فهل نقول ان شيئا كمل ، قبل أن يوفى على غايته ، ويبلغ تمامه ؟.

وأنا لست أعرف معنى لهذه الحرية ، بيد أني الفت أن أطلق لفكرى عنانه فهذا عندى أخلق بان يجعلنى أكثر شعوراً بحياتى ، وفهما لها ، وأنا طامع بعد فى أن تحمدوا لى نتائج هذه الحرية ان شاء الله .

لا تكون النظرة الى حقائق الحياة والفكر خالصة ، الا من اناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوالبها ، وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة ، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة ، لأن حظ الصفات والمبادىء والنزعات يرتبط دائما بحظ الداعين اليها ، والمتصفين بها ، من النجاح والفشل .

هذه حقيقة فطن لها الناس من القدم ، فقالوا كثيرا ما معناه :

النـــاس ، من يلـــق خـــيراً ، قائلـــون له
مـــا يشتهـــى ولأم المخطـــىء الهبل

ليس هذا حظ الاحياء فحسب ، بل حظ المبادىء والاغانى والنظريـات والفضائل ، وحظ موقفى بينكم الليلة ايضا .

وأنا اريد التجريد والتعرية كباحث لا كمحاضر ، فانى لو قصرت كلامى على الرجولة ، او على الخلق الفاضل ، خشيت أن يتحول حديثى الى موعظة لا تعدو أن تكون تمدحا حماسيا بالفضائل ، دون تحليلها ، وردها الى مصادرهـا وتحديد قيمها ، ومعاييرها ، وأثرها من صميم الحياة وعلاقتها بالنفوس

والتجريد مبدأ قديم لى أو هو مرضى الذى لا أشفى منه ، عرفنى به من عرفوا طريقتى فى الحياة ومن قرأوا نظراتى القديمة فى الخير والشر ، فى الفضائل والرذائل ، وفى الحب ، وفى الشعر .

فاذا ظن ظان ان فيا اقوله الليلة خلطاً أو اطلاقا أو شذوذا ، فانما يكون هذا الظن معقولا لا أضيق به ، فهو عندى شبيه بالنظرة الى مجهول لم يتكشف ، لا إلى مجهول أخذ سبيله فى التكشف والوضوح .

* * *

كان الحديث عن المسائل الجنسية ، وعلاقتها بحياة الانسان الفكرية ، واخلاقة ، وميوله ، وعقده العصبية ووجدانه ـ أول ما فوجىء به الناس مسا لمواطن العفة والتقديس فى نفوسهم وعقائدهم الفكرية ، حتى نالت المسألة الجنسية نصيبها من الفهم والتقدير ، فاذا تناولها اليوم باحث بالتوليد والتكرار والتمحيص والاكتشاف ، لم يلق العنت الذى لقيه الباحث الاول .

وأنا لا ازعم لكم انى الباحث الاول فى الفضائل والرذائل ، ولكنى أظن أنى أول من يتناول البحث فيها بهذه الطريقة التجريدية وبهذا الاسلوب العارى .

والتجريد فى مرحلته الاولى ، رد للمسائل الى أصولها المفروضة ، والى أساساتها العارية ، فهو يمس العقائد الفكرية ـ لا شك ـ ويهدم منها شيئا ، ليقيم شيئا محله .

وهو فرض ينازل حقيقة تحجر بها الاصطلاح ، ووهم ينازل اعتقادا ، وشك تعارض به معرفة .

وما زالت النفوس اضعف استعدادا لقبول المفاجآت التى تحاول أن تنتزع من معتقداتها ومشاعرها ، شيئا له قيمته وقداسته ، وله صلابته العنيدة

وشأن الجديد فى هذه السبيل ، أن يكون رمز الاقلاق والبعثرة . وما يهون على النفوس والافكار ، أن تنزل عن قوانينها الادبية ، وتقاليدها وعقائدها ، الا مكرهة .

والجديد متى استطاع أن يقيم الشك فى نفس ، كان قد غزاها الغزوة الاولى ولكن هذا ليس سهلا كما يظن .

فقد يكون هدم قانون رياضى ، أو هدم قاعدة علمية ، أهون كثيرا من مس عقيدة فى رجل ، أو فى فضيلة ، بل هو هكذا .

قلب أينشتين ـ العالم الالمانى ـ بعض القواعد العلمية والرياضية رأسا على عقب ، فما عبأ به الناس ، ولا تنكروا له . ولعله لو أقترح تحويل كنيسة مهملة الى ملعب رياضى ، لمس بهذا الاقتراح أطراف مشكلة قد تجر الى الاعتداء عليه .

اذن نحن نعرف الخطورة فى اعتراض عرف متصلب ، حتى فى أهون المسائل النظرية المتعلقة بعقائد الفكر والنفوس . فلماذا نجازف .؟..

ان المجازفة الليلة ضرورة . ومن الخير ان نستفيد من قوانين الضرورات المرتجلة ، لنكون باحثين مجازفين ، فالمجازفة فى تاريخ نشأة الحياة ، وفى تاريخ تطوراتها ، قادت روادها الى القمم الشامخة وأعانت على كشف مساتير الوجود والفكر .

والفكر المؤمن بنظرته الى شيء نظرة خاصة ، لا يسعه الا ان يؤدى الأمانة

ونحن لا نحلم بالقمم الشامخة ، ولكنا نرجو ان نصحح مقياسا من مقاييسنا الفكرية ، ولو بالشك فيه . لأن الركود فى تاريخ امة تتطلع الى ما وراء حدودها الجامدة ، شر من الخطأ .

لهذا ستكون نظرتنا الى الفضائل ـ على أن أساسها التجريد القاسى ـ نظرة من يريد ان ينطلق بها من حدودها الضيقة المتصلبة ، الى حدود رحيبة من الشك والوسواس ، خاضعا لسعة ادراكه لأطرافها ، وخفاياها ورموزها ، وعلاقتها بأشباهها . وهو لا يفعل بها هذا ليضعفها ، بل ليبلغ بها ابعد حدود القوة والاحتمال .

والناس يمتحنون قواهم الجسدية ، بألوان عنيفة من الرياضة ، والكد المصطنع ، لتمرينها على احتمال الاعباء ، ولشحذ طاقتها ، ولتقوية مراكز الارادة

والسلطان فيها . على ان الرياضة فى ذاتها ـ كمشقة ـ ، نصب للجسم ، وانتهاك صريح لحرمة نشاطه المذخور .

وسأكون الليلة اكثر حرية . وإن كانت أفكارى ونظراتى ، ستفقد الترابط والانسجام ، لضيق المجال الذى يشعر به باحث أو محدث ، يجىء فى غبار السادة المجلين قبله . فهنا تنتصب الموازين الدقيقة ، وتضيق دائرة التسامح والتغاضى . فقد عرفت الاذهان أنماطا عالية من التفكير وانماطا قوية من أساليب القول المجود ، كونت ذوقا ارستقراطيا ، لا يرضيه من الجمال الا ان يكون فتنة تهز المشاعر ، ولا من القول الا ان يجىء عبقرية .

وهذا لون من الوان الادمان الادبى ، بل هو عندى الليلة شر الوانه . فان الاذواق متى الفت أن تصيب لذتها من جمال محدود ، تاقت بعد ألفته ، واستصفاء معانيه ، الى ما يكمن وراء حدوده الظاهرة ، والى ما يقودها بعيدا عن هذه الحدود ، على وفاق نصيبها ، من سعة التخيل ، وجشع الاحساس ، والمقدرة على تصور الصور واستحضارها وانطلاق الميول .

وادمان النظرة الى صورة جميلة ، يفقدها شيئا من تأثيرها القوى كلما تجدد اليها النظر المشغوف ، وارتوى منها الحس المنهوم ، حتى تفقد مقدرتها على التأثير .. والاداء ..

وانك لتعجب بالمنظر يفتنك ، ويلقاك بالف معنى ، اول ما تلقاه فما تزال نفسك دائبة فى تحليل معانية وإذابتها ، حتى تنتهى بها الى الاصفاء والافلاس ، وتكون قد حولتها الى دمك شيئا منه ، فما تلبث ان تنصرف عن هيكلها العارى ، وقد تركته مادة جامدة . وأضفت الى قانون الجمال وفهمه ، والاحساس به فى نفسك ، مادة جديدة ، لا يبلغ بها الرضى عندك ، الا ان يضمن لك المنظر الجديد ، معنى جديدا ، يزيد عما تعرف .

ولبعض النفوس والاذواق قوة النار واستشراؤها ، شأنها فى الاذابـة شأن النار ، ما يستقيم فيها شيء الا ان كان فى معناه معنى الصخر والحديد وهو بعد ذاهب لا يدوم ، وذائب ما يبقى !

فاذا خفت الليلة ، فانما اخشى خطرا عرفت مشابهه فى نفسى ، فان كتبت لى السلامة ـ ولا اتوقعها ـ فانما تكون اثر الحظ ، وخارقة من خوارقه المعروفة .

ولست ارجو ان أصيب النجاح فى مثل هذه السبيـل الجانحـة ، لكنهـا الضرورة . وما كنت لولاها أوثر ان اتكشف لكم عن سرائر ودخائل ضئيلة تخيب أملكم فيّ ، وأملى فى نفسى .

ولقد يواجه المرء خطرا لا معدى له عن مواجهته ، فتكتب له النجـاة ، فيقول الخليون : انه شجاع . فان أسلم روحه قالوا انه الجهل والتهور واختلال القياس ، أوذهبوا يعددون منادح الخلاص التى يرون انه كان خليقا بان يتفطن لها .

ولا شك عندى فى ان سراوة مظهرى ستجنىِ علي كثيرا ، وتردد اسمى بين أسماء اخوانى الادباء ، يوهمكم فيً ، ويعدكم بما أعجز عن تحقيقه ، ورب قائل يقول : اليس هذا عصر الانتهاز والاعلان ؟ فأقول له : بلى ، ولكنـه عصر المنطق والوزن والتقدير والمقارنة ايضا !؟ وانما يقاس النجاح فيه ، بما تعد به الطاقة المتخيلة ، والامكان المفروض ، والناس ان ادهشهم الرجل العادى ، لانه لعب على الحبل بمهارة ، لم يقنعوا من البهلوان الشهير الا بما يدخل فى حدود السحر من الافعال الخارقة .

ونحن نفرح بالطفل يهدينا مالا يساوى فى ميزان المادة شيئا ، أضعاف ما نفرح بهدية غنىِ تساوى العشرات ؛ ذاك أنّا ننظر من وراء القيم والمعايير ، الى الطاقة والامكان ، والى بواعث الشعور ونسبتها !

فالكبير ان اهدى فسبيل مثله ان يفعل ، أما الطفل فسبيله الاثرة والشح . فهو ان اهدى شيئا فانما يهديه من نفسه ، وانما يعبر بهذه الدلالة عن عاطفة ساذجة فى حرارة اندفاعها ، وصدق انفعالها ، غير ناظر الى الربح والبدل .

والكبير يقدر الغاية ، ويرسم الوسيلة اليها ، او يؤدى الدين ، او يفتتح السبيل ، وميزانه فى ذلك ميزان الحساب الدقيق ، اما فى اعتبارات المادة ، او فى اعتبارات الشعور بمطالب القلب والفكر ، ونوازع الأريحية والوجدان فشأنى الليلة أمامكم هذا الشأن . وما اود ان تكون خاتمتى بينكم موتاً ، بل انتحارا ، فالانتحار ـ هنا على الأقل ـ أضمن لتحقيق معنى الاختيار من الاستسلام للموت ، ولعله ادل عندى على الحيوية ، وتركز الادارة ، ووضوح الفكرة . وقديما قالت العرب « بيدى لا بيد عمرو » و

« تأخـرت أستبقـى الحيـاة ، فلـم اجد -
لنفسى حيـاة ، غـير أن أتقدما »

* * *

ليس من السهل ان يتكهن باحث بالعهد الذى عرف فيه الانسان الخير والشر ، وان كانت معرفتها ـ على الارجح ـ متصلة بحياته الفطرية الاولى ، او منتزعة من صميمها .

وإذا كان صعبا أن يحدد التاريخ الذى عرف فيـه الانسـان ، الزراعـة وزاولها ، والتاريخ الذى أكتشف فيه النار ، وعرف صنـع السـلاح ، واقامـة الأكواخ ، فان من أصعب الصعاب ، أن يكتشف اليوم باحث ، تطور نفسيات الانسان الأول ، وتطور مدركاته الفكرية .

نعم ان علم الاجتماع قد فرغ تقريبا من استنتاج النتائج التى بنيت على قليل من آثار الانسان القديم ، وعلى كثير من الفروض المرتجلة ، ولكن عقدا كثيرة بقيت أمامه ، وستبقى ، بغير حل .

وقد يمكن ترتيب الاطوار الكبرى التى أجتازها الانسان القديم بشىء من الفرض الدقيق ، وبشىء من الاستقراء ، ولكن التعرض لسلسة المراحل التى تخللت هذه الاطوار الكبرى ، ليس هينا .

وان كانت دراسة احوال الجماعات الهمجية اليوم ، تشير الى احوال الانسان القديم ، وتحل بعض الرموز ، فان مالا شبهة فيه ان حياة أية جماعة همجية فى

هذا العصر الراهن ، تختلف كثيرا عن تاريخ همجية الانسان الاول ، ولا يمكن أن تعطى صورا تقريبية لها .

فانتشار الجماعات الأولى على سطح الكرة الأرضية ، يعد وثبة مجهولة لايمكن أن يهتدى فيها فكر الباحث أو المفترض الى نتيجة ، يطمئن اليها العقل

وتحديد المجتمع الاول ، للجماعة الاولى ، لا يقوم الا على ترجيحات ذهنية ضعيفة ، يسهل نقضها .

فآثار الانسان والحيوان المتحجرة ، تكتشف فى نواحٍ كثيرة متباعدة من الارض ، لا تصلها ببعضها وسائط النقل السريعة فى هذا العصر الا بصعوبة .

والذى دفع الجماعات البشرية الاولى الى التفرق والتباعد ، لا يمكن ان يتعدى الدوافع التى تنشأ عن الحاجة الى الطعام ، أو الشعور بعدم ملاءمة البيئة ؛ لأن نظرية التكاثف الاجتماعى ، لا يمكن التسليم بصحتها ، بالنسبة للاطوار الاولىٰ .

ولو أمكن التسليم بأن الجماعات المشتقة من الجماعة الاولى ، اندفعت بعوامل بيئية ، او غذائية الى الهجرة عن مواطنها الاولى على شاطىء نهر مثلا ، لما جاز ان تقطع طول هذا النهر ، لتهجره الى بيئات جافة ، يقل استعدادها الطبيعى للزراعة ، ولتكوين مجتمع حيوانى ، او الى بيئات بعيدة يستغرق الوصول اليها عمر الجماعة المهاجرة قطعا .

ولا شك ان عوامل الانتشار والهجرة من اول بيئة عمرها الانسان ستبقى لغزا مبهما .

وعلى قدر الصعوبة فى استنتاج النتائج المتعلقة بالحياة الاجتماعية للانسان الاول ، تتضاعف الصعوبة فى الحكم على تطوراته الفكرية والنفسية .

ولا تزال الفكرة عن الخير والشر فى بقايا الجماعات الهمجية ، الآن غامضة كل الغموض ، بالرغم من ان همجيتها ، تعد حياة اجتماعية عريقة ، اذا قيست فكريا الى ما يفرضه العقل لهمجية الانسان فى اطواره الاولى .

وقد تستغربون العلاقة بين الاطوار الاجتماعية الاولى ، والبحث فى الاخلاق ، ونحن نراها من اوثق العلاقات ، والزمها لباحث يريد أن يحدد الفضائل ، التى تقوم كل فضيلة منها مقام شريعة أدبية قامت بمجهود كبير فى تهذيب النفوس ، وتحديد ميولها ، وكبح نزعاتها .

إن القوانين التى تسن اليوم ، تشير الى المجهود المضنى الذى تبذله قيادة كل جماعة ، لتنظيم حياتها ، وعلاقاتها ، واقامة الحدود بين افرادها . وتشير الى التنازع المستمر بين رغبات الفرد ، ورغبات الجماعة ، او بين الرغبات التى تمثل المصلحة الفردية ، والرغبات المثلى للجماعة .

ومصادر التشريع اليوم ، لا تلقى المقاومة التى كانت تلقاها مصادر التشريع فى الاطوار الهمجية الاولى . فقد كان كل فرد فى جاهلية الحياة ، حكومة تمثل نفسها ، وتفرض رغباتها ، وتمهد السبيل لمصالحها ، بقانون قوتها الغاشمة !

فالعهد الذى برزت فيه اول فضيلة ، أى اول شريعة أدبية ، هو العهد الذى انبثق فيه فجر المدنية الفكرية للانسان ، بلا شك وهو العهد الذى تهيأت فيه الولادة المستمرة للفضائل ، والشرائع الادبية .

كيف نشأ الشعور بهذه الفضيلة ؟ وكيف فرضت ؟ وكيف تم الايمان بها ، أو الاصطلاح عليها ؟ وكيف سادت احكامها ؟ ومن ممثلوها فى الجماعة ؟ وهل كانوا يمثلون سلطتها ؟ وهل كانوا أقوياء ، أم ضعفاء ؟؟

تتداعى هذه الاسئلة فى فكر الباحث باعتبار علاقتها بأهم خطوة فى الاطوار الاولى لحياة الانسان القديم .

ولا شبهة فى أن الانسان عرف النفع والاذى قبل أن تقوم فى نفسه فكرته الاولى عن الخير والشر باعتبار مفهوميها العام ، فاهتداؤه الى فكرة الخير والشر ، كان بعد عقيدته فى النفع والاذى .

والنفع والاذى جاءا ، أو جاء الشعور بهما بعد اللذة والالم . لانهما صادران عن أحكام جسده وحياته فى نطاقها الحيوانى الضيق .

ولما كان بحثنا أشبه بمحاولة ادبية جريئة لتحليل الاخـلاق ، وعلاقتهـا الأصيلة بالحياة ، فانا سنتسامح كثيرا فى التقيد بالقيود التى تستوجبها الدقة العلمية ، فى أبحاث تحمل شارة التقيد باحكام العقل ، والعلم المدقق .

* * *

نبدأ بتعريف الفضائل ، والرجولة ، والاخلاق ، وهى الكلمات التى شملها عنوان هذا البحث مع ايماننا بأن تعريفنا لا يمكن أن يضمن تحديدا دقيقا لها ، انما يكون أساسا تبنى عليه النظرة الخاصة ، وتقوم عليه فروضها .

ولا نستبعد ان يكون ما نقوله فى هذه التعاريف ، وفيما يتلوه من الفروض والنظرات متأثرا بما سبقنا اليه الباحثون . ولنا فى هذا رأى نرى ايراده ضرورة .

إن الأساسات المدرسية ، والادبية القديمة ، فى اللغة العربية ، وفيما دخل عليها من اللغات الاخرى ، تكون جزءاً من فكرة الاديب ومبدئه الادبـى ، وجزءاً من نزعاته الفكرية .

واذا كان الشاعر فى عصرنا لا يخرج بلغته عن جملة الالفاظ التى استعملها الشعراء قبله ، ولا عن قوانين الصياغة والرصف ، ولا عن قوانـين التخيـل والتصور ، فلأنه لا يستطيع أن يبتدع لنفسه لغة خاصة ، ولا فكرا يصاغ على غير ما صيغت عليه أفكار الشعراء قبله ، ولا قوانين صياغة غير قوانين لغته التى يرثها .

ومصادر الشعر النفسية والفكرية ، وأسبابه العاطفية ، والعقلية ما تزال هى هى فى شاعر اليوم وفى شاعر الامس .

واذا كانت اوضاع الحياة قد تغيرت ، فان خصائص النفس والفكر لم تتغير تغيرا أنتزع عواطفه الانسانية وبدلها .

واذا كانت العلوم قد تقدمت فليس تقدمها دليل انه صار ذكاء الانسان الى غير ما كان عليه قبل ألف سنة .

انما معناه ان الاكتشافات وتقدم وسائل التعليم ، وتطور نفوذ الثروة والسلاح ، والتقدم الآلى ، وسعت مجالات الذكاء وضاعفتها .

وإن كان الانسان المتحضر اليوم لا يعيش كما كان يعيش سلفه ، فان قلبه لا يزال ذلك القلب ، وقريحته الشعرية ما تزال تلك القريحة . وما تزال أسباب الحب ، ومشاكله ، وابتعاثاته ، وأوهامه فى نفس شاعر اليوم ، هى ذاتها فى شاعر الأمس .

فالباحث فى الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، لا يمكن أن يأتى فى تعريفها بجديد يختلف كثيرا عما أتت به الملكات والأفهام قبل ألف سنة مثلا وما يصيبه من تقدم الاكتشافات الفكرية ، وتعدد سبل الحياة والعقل ، يوسع مجالات العلائق فقط ، ولكنه لا يخرج الاعتبارات الفكرية عن حدودها الا قليلا .

وجمود بعض الحقائق النفسية والفكرية معروف ، ما نجدنا بحاجة الى التدليل عليه ، وانما تختلف العصور فى الايمان بالحقائق والتوسع فى فهم علاقاتها ، فاذا قال مفكر اليوم ان الفضائل أوهام عقلية او نفسية ، غايتها ايجاد مثل عليا للجموع ، تستمد منها روح العزاء والعزيمة والأمل ، لم يكن معنى هذا انكار صحة تعاريفها ، او صحة الاحكام التى اعطيت عنها .

فالشيء قد يكون صحيحا فى ذاته ، وصحته لا تستدعى صحة الفكرة عن الاعتراف بامكان تطبيقه ، أو استحالة هذا الامكان ، ولا تستدعى الايمان به أو رفضه .

على ان تحديد بعض الحقائق وتعريفها قد يختلف فى عصر عن عصر ، بل فى فكر عن فكر ، ولكن حقائقها الأصيلة لا تختلف .

فاذا قال قائل ان الكذب ليس هو حكاية غير الواقع ، لاختلاف التصورات والادراكات فى بعض النفوس عن بعضها ، لم تكن مقالته انكارا لحقيقة الكذب ، بل لتحديده وتعريفه .

وقد نكون مسبوقين الى هذه التحديدات ، أو مخالفين بها تحديدات يظن انها اكثر دقة واستغراقا لمعنى ما تحدده ، فما نضطر احدا الى التسليم بما نقوله .

أو قد يكون كل ما نقوله عن الفضائل والرذائل شيئا قديما فيما ندعى له الجدة أمامكم .

وقد يكون شيئا تجدون مشابهه فى الجديد فما ننفى عنه هذه الشبهة .

انما ندعى الاستقلال ، وانما نقول ان الاساسات المدرسية والفكرية القديمة ، والاساسات الفكرية الجديدة ، وشيوعها ، جعلت بين الافكار العامة روابط صلات ، ما ينكر اثرها فى ازالة الفوارق وتقريب الافكار وتشابه السمات .

وحسبكم ان تقرأوا اليوم فى الحجاز ، أساليب من الشعر ، وأساليب من الكتابة ، لا يختلف بعضها عما تعرفون لخيرة الكتاب والشعراء فى مصر ، فمن يَعُدُّ هذا تقليدا أو سرقة ؟ انما هو أثر الاشتراك العام فى مؤثرات فكرية متشابهة ، و أثر انتشار الثقافة ، وتهيؤ أسباب العلم لمستحدثات العقل والفكر والصناعة والفنون ، وتوثق الصلات الفكرية والادبية ، وتوحد اللغة والدين ، وتقارب الطباع والامزجة وتأثير الاختلاط والامتزاج الاجتماعى والفكرى .

وفى شعراء مصر من نجد على شعره سمات شاعر عربى قديم ، وطابع صياغته فى كُتَّابها من نجد فى آثاره ما يعلن صلته الصريحة باديب من كبار أدبائها ، وفى كبار ادبائها من تطالعنا آثاره بأفكار اديب ، او نظرات عالم ، أومذاهب فيلسوف من الغرب . فماذا نحن قائلون ؟؟

أغير ان مجال الفكر اليوم قد اتسع ، وتحرر من القيود التى أقامتها العزلة القديمة بين الشعوب ؟ وان آثار حرية الفكر وشيوع مذاهب التفكير واساليبها فى أنحاء العالم ، وتقدم المواصلات والصلات الاقتصادية والفكرية والسياسية قد خلقت طائفة من القرابات الذهنية والادبية بين الناس ؟؟ وكانت سببا فى القضاء على كثير من أسباب التباين الفكرى والأدبى بين الشعوب المتباينة ؟؟

وما نرى بعد ما قلناه ، دليلا على براءتنا من تهمة التقليد أو ترديد المألوف ، أقوى من ضعف هذا البحث ، واضطراب مذهبنا فيه ، هذا الاضطراب الواضح .

والآن نبدأ :

الخلق الفاضل يعرفه الناس ، فلا يزيدهم فهما له ان تقيم الكلمات والتعاريف حدوده .

فهم يكذبون ويخونون ، ويؤمنون بأن الصدق والأمانة نبل .

ويتبذلون ، ويشعرون ان العفة سمو .

ويضعفون ، ويكبرون القوة .

ويَظْلِمُون ، ويقدسون العدالة .

فالفضائل اذن صفات وأعمال ، تؤمن الجماعة الغالبة اصطلاحا بفائدتها وضرورتها ، أو بانها خير .

والرذائل صفات واعمال تؤمن الجماعة الغالبة اصطلاحا بضررها او بانها شر .

فالنفع والأذى أساس الاعتبار فى الفضائل والرذائل .

والاخلاق هى آثار الفضائل القائمة فى النفوس ، أو اثر مزاولتها ، والرجولة فى ميزان الاعتبار الادبى ، ليست هى الفارق الطبيعى بين جنسين ولكنها مجموعة من الصفات الرائعة فى الرجل الرائع .

* * *

ومن حسن الحظ ان الالفاظ فى مجال البحث الادبى ، وتقرير التعاريف لا تحدد المفاهيم تحديدا هندسيا ، ولكن تُقربُها ، لأن مدركات الذهن عادة تقوم بنصيب وافر فى تكميل الصور ، وحل رموزها ، وتوسيع مدى مضامينها واشاراتها .

وواضح انى لو اردت أن أضع تعاريف أدق وأكمل للفضيلة والرذيلة والرجولة والاخلاق ، لوجب ان أسوق أمامى قطيعا من أفكار الحكماء والعلماء والادباء والفلاسفة . وأكون قد عرضت عليكم بضاعة غيرى وبهذا تكون اللعبة أقل خطرا مما يراد ، او مما ينتظر .

والايمان بالفضيلة قديم ، كما ان الكفر بالرذيلة قديم ، والحرب بينهما لا تزال قائمة ، ما تهدأ لها ثائرة . وهى سجال بينهما ، ميدانها النفس الانسانية تارة ، ومجال الحياة الظاهر تارة أخرى ، وستبقى سجالا هكذا ، الا ان اراد الله .

فاذا انهزمت الرذيلة فى مجال الحياة الظاهر ، لم تنهزم فى مجالها الباطن ، فعرشها ما يزال موطد الاركان فى النفوس .

فهل كانت الرذيلة ضربة لازبة على الحياة ؟

أم ان فى النفس الانسانية ضعفا ؟ ما تكون الحياة كاملة معانى القوة الا به ، والا بأن يبقى قائما يذكى نار الصراع فيها حتى تنتهى الى غايتها المقدورة لها . أم أن الشر فطرة النفس الانسانية ، والخير عدوها اللدود فما ينفك يغزوها ، وهى تدفعه ؛ لأنه الدخيل الواغل على حياتها ، فان استكانت له فانما تكون استكانة المجاهد المغلوب على امره ، لا استكانة الايمان بالحق ، فاذا استعادت قوتها على الصيال صالت ، وعادت سيرتها التى ما تتبدل ولا تزول .

ذلك ما لا يجد الفكر عليه جوابا .

لا خلاف فى ان الايمان بالفضيلة ، والكفر بالرذيلة ، غير سلوك سبيليهما ، لكن الخلاف يجىء من التفرقة بين الايمان والعمل به ، والكفر والعمل به ، والموقف من الدقة بحيث يخشى فيه الزلل على العقل البصير .

هذه مسألة لا يجيب عليها العقل وحده ، بل يجب ان يُستنجد لها الضمير !

فالايمان بالفضيلة عند الفارابى ـ الملقب بأرسطو العرب ـ خير من سلوك سبيلها على غير ايمان .

وهو يريد بالايمان هنا المعرفة ، معرفة الفيلسوف المتعمق المنتهى الى الطمأنينة والاعتقاد !

فكأنه يقول : اذا عرفت ان الصدق خير من الكذب ، وآمنت بهذا ايمانا قاطعا مستمدا من معرفتك ، كنت عندى خيرا من الصادق ما دام لا يماثلك فى هذه المعرفة . واسمعْه يقول :

« لو وجد رجلان احدهما واقف على مبادىء وتآليف أرسطو ، ولكنـه لا يسلك سلوكا منطبقا على مبادىء هذا الفيلسوف . والآخر يسلك سلوكا منطبقا على ما جاء فى هذه المؤلفات ، ولكنه جاهل بها ، فان الاول افضل من الثانى ، لأن المعرفة افضل من الفعل الفاضل ! »

لان المعرفة أفضل من الفعل الفاضل !

هكذا يقول هذا العقل الجبار ، فهل هى كبوة من كبواته ، أم هى حقيقة الحقائق فى الايمان بالفضيلة ؟

إننا نرى وراء هذه الكلمة امداء مترامية ما يحيط بها الفكر ، فما نود ان نهيم فيها على وجوهنا ، قبل ان نعود الى الايمان بالفضيلة ، نحدده أو نقيسه ، أو نزنه عساه يكون عدتنا لهذه الرحلة العسيرة .

ولا مراء فى ان الايمان الكامل الصحيح بالفضيلة ، معرفة ، وعمل . تقتضيه هذه المعرفة ، وارادة ، وحرية ..

هذا هو المظهر الكامل للايمان بالفضيلة فى اعتقادنا .

فلنستعرض الآن الوانا اخرى للايمان بها .

إن الايمان بالفضيلة دون العمل بمستلزماتـه ، ضعف لا يتنـاول حقيقـة الايمان ، بل يتناول قوة النفس وضعفها ، وفتورها ونشاطها . فهو ايمان المعرفة ، لا ايمان اليقظة .

وهناك لون من الوان الايمان بالفضيلة يعمل بمستلزماتها ، ولكنه لا يعرفها المعرفة التى هى الايمان ، فهو اندفاع آلى لا اختيار فيـه للنفس ولا ارادة ، فنصيب النفس فيه ، نصيب الآلة فى حركة تؤديها ، فهى تتحرك ولا تعى ، وتفعل ولا تريد ، كالصخرة تتدحرج فتصيب حيا فتقتله ، وكالحيوان يطأ حيا فيودى بحياته . لا ارادة . ولا ادراك ..

ولون آخر من الايمان بالفضيلة تولده الضرورة ، لا يكون لاختيار الارادة فيه مجال ، ولا لحريتها مساغ ، كايمان المرء بضرورة الثبات على الاستبسال دون نفسه أمام خطر داهم لا مناص له من مواجهته .

فالثبات هنا ليس إيمانا بالثبات ، والعمل بمستلزماته ليس عملا بمستلزمات ايمان يقوم على اقتناع الحرية المختارة ، لكنه ايمان ضرورة بهذه المستلزمات والاستجابة لها .

فهذا ايمان ، وعمل بمستلزماته وارادة ظاهرة .

لا ينقصه الا الاختيار ليكون ايمانا كاملا . ففيم يختلف عن ايمان رجل تحمله بالسيف على أن يؤمن بأن الصدق خير من الكذب ، وعلى ان يكون صادقا ؛ فاذا عرف وصدق ، فانما يكون هذا ايمان ضرورة ، وعملا آليا لا اختيار له فيه ولا حرية ، وانما يكون ايمانا تنتقض عليه نفسه كلما مارسه !

وايمان بالفضيلة يولده الانقياد التقليدى ، لا تنتقض فيه النفس على شيء ، لانها لا تحس شيئا ، بل تساير عليه الناس ، تراهم يفعلونه فتفعله . لا مختارة ولا مكرهة ، وإن كان ظاهره الاختيار والارادة .

هذا ايمان بهيمى .

* * *

نحن نستطيع المقارنة الدقيقة بين هذه الألوان ، ونعرف ايها له الغلبة ، ونعرف أنها تتقاسم النفوس فى القرن العشرين كما كانت تتقاسمها فى المراحل الاولى من الحياة . لكنا نؤثر شيئا غير المقارنة .

نؤثر ان نجعل السبيل الى الشك والقياس مجهودا ، وحسبنا ان نقيم المقياس ، أو نصححه ، أو نشير اليه ليقيس كل إيمانه بالفضيلة كما يقوم هذا الايمان فى نفسه لا كما يقوم فى اذهان الناس وعيونهم .

انتم لا تعرفون عنى الا ما اريد لكم ان تعرفوه ، وهذه سبيلكم أمامى .

الانسان كما يشاء ان يفهمه الناس ، غير الانسان كما هو فى نفسه .

هذه حقيقة نعرفها جميعا .

وفى سرائر النفوس ، سراديب تنطوى على ما فيها من عوامل الشر وآثاره ومن عوامل الخير وآثاره .

ولرب رجل ياتى الامر ، تظنه خيرا كله ، وهو سبيلـه الى الشر والاذى وانتهاك الحرمات ومطيته الى اغراض خائنـة تسبـح فى دم الضحايـا .. يرى اعجابك ، واعجاب الناس بما ظنوه خيرا فيتهلل ، لأنه عرف مكانه من براعة الحيلة ، ونفاذ الدهاء ! فوارحمتاه للانسان من اخيه الانسان .

كلنا يؤمن بضرورة الارتقاء والنهوض ، ويؤمن بوسائله وأسبابه الواضحة وكلنا يؤمن بالفضيلة والخير ، ويكفر بالرذيلة والشر ، فهل افادنا هذا الايمان ؟ هل أفدنا به ارتقاءاً أو نهوضا ؟

انما نراه عاملا قويا من عوامل ضعفنا ، وانما نراه اثقلها وطأة على مواطن الضمائر والهمم فينا ، فلماذا ؟

ألأنه الايمان الذى يدعوه الفارابى عملا فاضلا ، ولا يدعوه معرفة ؟

أم لانه ايمان الضرورة ، الذى لا يخرج بالانسان من حدود ذاته المغلوبة .

أم تراه الايمان البهيمى ، فيه الانقياد ، وفيه العمل ، وفيه الاختيار الظاهر وفيه الارادة الزائفة ، وليس فيه الايمان ؟؟.

وبعد .. فهذا حد العظة الآن ، فى حديثى عن الفضيلة وعن الايمان بها ، أوجزت الكلام فيه ، لأن الوعظ يمس النفوس ولا يرجها ، ويثير فيها الرغبة ، ولا يوقظ الارادة . ولانى لا اريد لحديثى الليلة ان يكون موعظة ، تلف النفوس فيما يشبه الغيم الرقيق ، لا هو يجلوها ولا هو يتركها فى غياهبها المطبقة .

انما اريد الوضوح والتعرية ، وانما اريد ان نعرف جميعا حقيقة الفضائل والرذائل ، وقرابتها من العقل المبصر ، وحقيقة الايمان بها ، ونصيب هذا الايمان من الصحة والقوة ، كما نعرف حقيقة كائن حى نشأ وترعرع واكتمل وانساق بعوامل الحياة حوله . عسانا إن آمنا بالفضيلة بعد ، أن نؤمـن بشىء نعـرف معناه ، ونعرف مواضع الضعف والقوة فيه .

والآن بعد ان بسطت لكم هذا التمهيد أسأل :

هل كانت الفضيلة ، او كان الشعور بها ، أساس البناء الخلقى فى الحياة ؟

ولا معدى هنا عن توسيع مدى النظرة واطلاقها ، واغفال اصوات المعارضة ولو قليلا ، هى هدنة نلتمسها ، والباب بعدها على مصراعيه للرفض والانكار .

* * *

ان مطالب الحياة للانسان الاول لم تكن تعدو حاجته الى الطعام والمأوى والقوانين الادبية لا تنبت الا حيث تتسع مطالب الحياة ، وتتعدد صورها ، وتنفرج مسافاتها ، وهذا استقراء واضح لا غموض فيه .

فى هذا الطور البدائى من الحياة تكون القوة العارية مبدأ الانسان وقانونه . وتكون الرجولة رمز هذه القوة لأن للأنوثة فيه حدها الذى لا تتعداه .

ويكون الرجل المرموق ، من استطاع ان يكتسب طعامه ، وان يقيم مأواه الواقى .

فالرجولة فى هذا الطور شىء يتعلق بقوة الجسد ، لا بقوى النفس ، ووشائج اطوارها الباطنة وتكون ايضا الاصل فى نشأة اعتبارات المحاسن ، أو نشأة حلقاتها الاولى .

ونحن نسوق الكلام مساق التقرير ، والواقع أنا نفترض فروضا عقلية مجردة نلتمس ان تقيم لنا حدود الفهم والتصور والاقتناع . فالبحث فى اصل نشأة الأنواع ، أو فى أصل نشأة الحياة الاجتماعية ، لا يشبه فى الغموض اصل نشأة الاخلاق والفضائل وتطورها وان كان ارتباطه الوثيق بالحياة الاجتماعية ، شيئا لاشك فيه .

ونزيد قولنا وضوحا فنقول اننا لا نرى معنى لنشوء الفضائل فى الطور الأول من حياة الانسان القديم .

هنا انسان لا يعرف الا جسده وغرائزه وضروراته ، مطلبه الاول : قوت ، ووقاية

والغرائز قائده الخفى ، وبصيرته الملهمة وسلاحه ، فهي مادة التكوين الباطن فيه ، لا تصدر الحركات والاندفاعات والشهوات الا عن أحكامها القاهرة .

الغذاء . الحياة !

هذا تنازع البقاء

الغذاء . الحياة !

هما المادة التى يتكون منها دستوره الاول .

ومازالت الغرائز فى الانسان والحيوان مظهر حياتها الفطرى ، ومادة الاشتقاق وسبيل التحول .

والغذاء مطلب مشترك للانسان والحيوان الضارى على السواء ولكن الحيوان الضارى اقدر على هذا المطلب ، واسعى له ، وهنا موضع الاحتكاك والصراع .

فلا جرم ان يمتحن الانسان فى هذا الطور بعواد من الجهاد ، ومفاجآته الطارئة ، تتطلب الصبر والثبات والقوة العارمة ، وتتطلب الى هذا تبادل المعونة والنجدة ، والتكاتف على دفع المخاطر .

وفى وسعنا الآن ان نقول : ان الانسان انما اراد بمسعاه الاول فى حياته الاولى ، تحقيق مطلب حياته الصارخ (الغذاء) وهو من صبره على ما يلقاه من عنت فى هذه السبيل المملوءة بالمخاطر . عرف الصبر والثبات والشجاعة ، وطائفة من هذه المحاسن المتصلة بضرورات عيشه .

نحن ندعوها محاسن او فضائل ، وهو يراها ضرورات تتصل بحياته يأتيها طائعا او مكرها ، لانه يريد ان يعيش .

وفى هذا الطور عرف الخوف ، واعتاد الفرار ، وأحس الجبن ، وانعقال القوى

نحن ندعو هذه معائب او رذائل ، وهو يراها سبيل حياته وبقائه . هى ضرورات قائمة فى دمه يستجيب لها طائعا او مكرها ، لانه لا يريد ان يموت .

رأى هذا الانسان ، اثر القوة فى الحيوانات الضارية حوله وهو ضعيف . فاحس الحاجة الى القوة واحبها بقدر ما فيه من ارادة الحياة وحبها .

ورأى اثر القوة فى الحيوانات الضعيفة ، اذا تجمعت وتعاونت على اتقاء المخاطر ، فاحس الضرورة الى التعاون .

واذا كان بين الحيوانات الضعيفة ، مايزيدها التجمع ضعفا ، فالمرجح أن تجمعها فى أطوار الحياة الأولى ، كان يمثل ارادة البقاء . والأرجح أن هذه الحيوانات لم تكن موجودة بلا سلاح ، يوم كان كل حى فى الوجود مسلحا بما يدفع به الغائلة عن حياته . فالذى لاتكفى قوته للدفاع تتحول فيه ارادة البقاء الى كفاءة جرى أو مقدرة على التشكل والاختفاء .

وأثر الغرائز فى الإنسان ، أضعف من أثرها فى الحيوان .

كان هذا هكذا . وما يزال هكذا .

فالفرّوج على ضعف بنيته وتركيبه . يندفع الى الحياة نشيطا آلفا محيطه ، مضطلعا بمؤثراته العنيفة .

لكن الانسان الصغير (الطفل) يفتقر الى المعونة الدائمة من والديه حتى يقوى .

اذن ضعف الانسان اقتضى شيئا . اقتضى التجمع . التجمع التعاونى وكان تجمعه قبل ذلك طبيعيا محدودا .

وضرورات جهاده للغذاء ، إقتضت التعاون على مثال أرقى ، والتعاون اقتضى تجمعا آخر معنويا .. الاقتسام . الاشتراك . التعاطف .

ومايزال التعاطف فى حياة البشر ، ضرورة منشؤها الضعف ، والشعور به فى أفراد الجماعة ، وفى أفراد الجنس .

هذا يشير الى ذاك .

فى هذا الطور بدأ الشعور بضرورة التكتل يقوى .

الحيوانات الضعيفة تتكتل وتتجمهر .

الحيوانات القوية تتباعد وتنفرد .

اذن شعور الانسان بالضعف اقتضى التكتل أمام المؤثرات المشتركة « أخطار الحيوانات والطبيعة » فاتسعت الدائرة قليلا وأصبح الاجتماع ضرورة .

وأصبحت له فرائض جماعية ، نزل لأجلها عن شيء من أنانيته .

هذا واضح فى حياتنا أيضا .

أفراد الطبقة الممتازة فى الجماعة ، أميل الى التباعد والعزلة ، لشعورهم بالقوة والاكتفاء . وعندما تكون بواعث التكتل ، مذيبة لفرائض العزلة ، يتجمعون ويخرجون من حدودها ، لشعورهم بالضعف وينزلون عن شيء من امتيازات تميزهم لفرائض الجماعة ، ولفرائض الاشتراك والتعاون .

هذه ضرورات حياة .

ماذا يفعل الانسان القديم فى طور الكفاح الغشيم للحياة ، لو أنه انفرد ؟ وجافى جماعته ؟

يموت جوعا . أو خوفا . أو يفترس . يندر ان ينجو .. لان الحيوانات ، حتى الحيوانات الضعيفة أقدر منه على الشم والجرى والنظر ، والاحساس الفطرى بالمخاطر ، وتجنبها .

هى ذات غرائز قوية وهو ذو غرائز ضعيفة .

السبع ، لايخاف النمر ، ولايخاف الذئب لانه يغلبهما ، ويفترس مادونه فانتفاء الخوف عنه جعله ينفرد . قوته وصولته تتكفلان بعيشه وحمايته .

الانسان يخاف السبع والنمر والذئب . ويخاف الوعول والكلاب . هى ذات براثن وحوافر واظلاف وقرون ونيوب .

وهو ذو حجر وعصا وأنشوطة . وذو حيلة وصبر ومهارة . فما يخشاه السبع اذا انفرد ، ولكنه يخشاه اذا تجمع .

فالتجمع تكفل بحماية الانسان ، ووسع دائرة تعاونه وتعاطفه .

كانت انفعالاته جسديه محضة . فاصبحت انفعالات جسدية نفسية استمد ادراكها من ضرورة العناية بابنه وبرفيقته ... (بأم هذا الأبن) ومن مظهر التعاون بينه وبين رفيقه ، وشريكه فى الصراع اليومى والاشتراك لون من الوان القرابة المؤثرة . مايزال هكذا .

إرتقت غرائز الانسان وتقدمت ، تطورت قليلا ، فولدت الشعور بالتعاطف كضرورة .

كان التعاطف الدعوة الاولى الى نشوء عواطف محدودة فى الانسان ضاقت معها حدود انانيته قليلا .. وأخذت تضيق باتساع عوامل الضرورات الجديدة ، المتحولة عن الضرورات الاولى ، كان يحب نفسه واسرته . فصار يحب الجماعة ايضا .

كان يحب مأواه ، فصار يحب مأوى هذه الجماعة .. (المأوى العام الموطن) ، لانه فى اعتباره ، موضع انتفاء الخوف ، واتقاء عوادى الطبيعة. وموضع ألفة الوان من الحياة . والجماعة والقرابة ، وتبادل العلم بالاشياء وفهمها ، والتحدث عنها ، وموطن ذكريات النشأة الاولى ، وخطرات النفس فى أول شعورها بما حولها ، وبما فوقها من مجهولات تخيف وتثير وموطن تكتل الجماعة وشعور الأُنس بها .

وحب الوطن فضيلة ـ لاشك ـ

هو فضيلة المتوحش والهمجى والاجتماعى والمتمدن . وفضيلة قد تتسع وتمتد حتى تكون اساسا لحب الموطن العام للبشرية كما كان حب المأوى الخاص أساسا لحب الموطن الجماعى ، فالموطن القومى .

فهل كان أساسها الا الضرورة ؟ وهل كان الوطن عند الانسان القديم الا هذه المعانى ؟ وإلا قرابة مدلولاتها من حياته .

فالغرائز ، وضرورات الحياة ، والشعور بالضعف ، هى المعين الذى استمدت منه تطورات الانسان فى تكتله ، وتعاونه ، وتعاطفه ، ومزاياه الاولى خصائصها ومقوماتها . كما كانت القوة فى الرجل القادر ، رمز الشعور بالمحاسن او مثار الاعجاب والمحاكاة .

وفى وسعنا الآن ان نستخلص مما تقدم ان الرجولة ـ كمظهر للقوة ومقدرتها كانت اصل الشعور بمحاسن القوة ، والاصل الذى اشتقت منه القيادة المحدودة والزعامة المطلقة ، بعد .

* * *

هذه صور متلاحقة سريعة ، اعرضها فى دقائق ، فتدركونها ، وترتبونها وتحسون الترابط الوثيق بينها . لكن كل صورة منها كانت فى حياة الانسان القديم اجزاء ، مايتألف منها جزء الى جزء الا ببطء كبير .

لم تكن الحياة سخية كما هى الآن . ولاكما كانت قبل الفى سنه . ولم تكن الحوادث والتطورات تسير بالسهولة التى تسير بها الآن وقبل الفى سنة . كان كل شىء فى الحياة يبدو مخيفا ، مغلقا ، جامدا ، مبهما بطيئا ، لايزحف ، ولكن يختلج ، ويتقدم بصعوبة .

وكان الانسان يهيم فى ظلمة مطبقة من نفسه ، ومن الاخطار والالغاز المتواثبة حوله ، وتحته ، وفوقه .

الشمس ، العاصفة ، الليل ، القمر ، النجوم ، المرض ، الموت ، الاحلام ، الصاعقة ، البرق ، كلها غامض وكلها مرعب نحن نفهمها ونستمد من بعضها اسباب سرورنا بالحياة ، وسرورنا بأنفسنا . ولكن الانسان القديم كان يخافها ويجهلها ..

كانت كلها الغازا مجهولة معقدة ، ما يرتفع عنها الستار ، ولكن يزحزحه الانسان ، وذخيرته مايلقى فى روعه عنها . وهو يتوجس الموت فى كل خطوة

مرتجفة يخطوها ، وفى كل خطرة من خطرات نفسه القلقة وبصيرته الكليلة .

ألاشد ما عانى هذا الانسان القديم . كم جاهد ، واحتمل المشقات والاهوال وخاف ، ولقى الموت عاريا ، فى مراحل نشأته الاولى وحياته . حتى مهد لنا سبيل الحياة الآمنة .. ولو انه كان مضطرا أن يفعل .

ها نحن نجاهد بعد انبثاق فجر المدنية آلاف السنين للتقدم ، وهانحن نلقى الطبيعة ، وقد قلت فى نفوسنا هيبة مخاطرها المرعبة ، وانزاحت ظلماتها المتراكبة ، وارتقت وسائل الدفاع ووضحت مسالك العقل ، وندرت المخاوف .. ومازلنا نخشى الظلمة ، ومازالت فرائصنا ترتعد من حركة مجهولة فيها . ومازلنا نخشى المغاور والثقوب والمفاجآت المنبعثة منها .

فالدنيا كلها كانت مغارة مظلمة ، امام الانسان القديم تترصد له فيها كلما خطا خطوة ، مخاوف الموت حاسرة أو مستخفية ، وطافرة أو زاحفة ، .. رائحة الموت فى كل شىء ..!

وكان البطء الممتد المرعب ، والتجارب القاسية القتَّالةُ ، مفتاح هذه المستحيلات والمجهولات ومفتاحها الفرد .

والحساب هنا ليس حساب سنين ، لكنه حساب اجيال ، فى وسعنا أن نفترضها ، متى قارنا طفل القرن العشرين ، بجده الانسان القديم البعيد .

الطفل الذى تقوم على تربيته الاولى أمة بأسرها ، بغرائبها ، ومعلوماتها ، وحضارتها . امة يؤلفها المنزل ، والزقاق ، والحارة ، والمدينة والمدرسة ، وذخائر من الكتب والقواعد والدين واللغة الكاملة والحب والعواطف ، والعادات والتقاليد ، والغرائز المهذبة ، وقوانين الوراثة ووسائل الحضارة ، والأمن والرخاء ..

هذا الطفل الذى مايبلغ مرحلة رشده الاولى حتى تتصبب الأمة عرقا ، وتتهافت اعياء ، اين هو من الانسان القديم الاعزل المندفع فى بيئة مظلمة ، تحتل الحيوانات الضارية نقطة الحياة منها ؟ والذى مأواه كهف ضيق مظلم ، أو

رأس شجرة وفروعها ، تتردد حولها المخاطر عارية ، ويتردد حولها الجوع والرعب ، والريح التى تشى برائحته ؟

* * *

بهذا المقياس نقيس بطء التطور فى هذه المراحل المتساوقة ، وان كانت طبيعة العرض للصور المتلاحقة امامكم ، تختزل هذه الامداء المترامية فى كلمات ..

والآن الى القوة .

فرصة الحياة شائعة يأخذ كل فرد فى الجماعة بنصيبه منها .

هذا يطارد الغزال . وهذا يكمن له .

هذا يصيد اكثر لانه اكثر قوة وحيلة .

وهذا لايصيد لانه اقل قوة وحيلة .

(لايصيد كثيرا الا الأقوى)

هذان طفلان يموتان فى مطلع حياتهما ، بسبب ظاهر او خفى .

وهذا طفل يعيش

هو قوى ، وهما ضعيفان

(القوى يعيش . والضعيف يموت) .

هذا قوى يسقط من شجرة فيموت .

وهذا قوى تطبق عليه صخرة فيموت .

(لم يموتا لانهما ضعيفان : دهشة ، انقباض ، اذعان ، صدفة ، حظ)

هذا قوى يصارع الرجال فيغلبهم (قوى)

هذا قوى يصرع الاسود ويصطادها (أقوى)

هذه مقارنة ثم : (خوف ، حسد ، تسليم ، بطولة ، زعامة)

هكذا آمن الانسان بالقوة ، وبمظاهر اقتدارها .

وهكذا آمن بالحظ .. والزعامة .. والبطولة .

وهكذا قارن واستنتج .

ودع الانسان عهده القديم ، وقابل عهدا جديدا

تراث هذا العهد المتحول :

غرائز تلطفت حدتها

عواطف محدودة بين أفراد الاسرة

تعاطف تعاونى بين أفراد الجماعة .

ايمان مطلق بقوة الجسد (الرجولة . البطولة . الزعامة)

محاسن ، ومعائب ، تتعلق بقدرة الجسد ، وكفاءته الظاهرة .

خرافات فردية وجماعية عن الطور القديم .

* * *

يمتاز الطور الجديد بانه اكثر ضمانا لطمأنينة الفرد والجماعة من سابقه . وبأنه اوفر غذاء .. لانه عهد اكثر رخاء ، ولانه عهد ذو تراث .

هذه فرصة ينتهزها الانسان للابتعاد عن حياة القلق والعراك . وللخروج من حدودها قليلا .

هى فرصة الراحة بعد العناء . فرصة التعقل الهادىء ، والالتفات والتأمل .

تدلنا اطوار الجماعات الهمجية الآن على ان سعة الشعور والادراك ، وامتداد التخيل ، وتصور امثلة ارقى للمدركات ، والاحساس النفسى بالنزوع اليها . والصبوة الى تحقيقها لايمكن ان يتأتى شيء منه للانسان فى اطواره الاولى ، الا كلما قطع مرحلة فى تقدمه الاجتماعى والفكرى .

فالرجل البدائى ، او الهمجى مثلا ، لايكون الامثال القصد والاكتفاء والوضوح ، وانتفاء التعقد ، فى ظواهره وبواطنه .

ثم هو بقدر ابتعاده عن بيئته الطبيعية الاولى ، وقوانينها ، ودخوله فى بيئات اكثر تعقدا . يأخذ فى التحلل من تأثير ايمانه . القديم بقوانين حياته الآبدة . ومطالبها المحدودة .

فنشوء المحاسن الاختيارية اذن لايمكن ان يكون الا من صنع التقدم الفكرى والاجتماعى ، لازدحامه بالصور والاوضاع التى لا يمكن ان يعالج حل عقدها ، بمنطق القوة وحده . والطور الجديد الذى نتكلم عنه الآن ، هو بيئة أكثر تعقدا وان كانت اقل خطرا .

والتقدم الفكرى والاجتماعى ، تطور يتنـاول المدركات الحسيـة والمعنويـة بالتحوير والتعديل والزيادة والنقص . يعطى قليلا ويأخذ اقل .

وهو فى اطواره الاولى يزيد خصائص الشعور بالقرابة الجماعية ويؤكدها . فلا غرابة اذن ، فى ان يكون طور الانتقال البطىء من حياة التنازع الغشيم ، سببا فى حمل الانسان على الالتفات الى الماضى ، الذى مازالت تربطه به روابط وثيقة .

هذا رجل شامخ القوة ، حطمه الجهاد ، أو حطمته السن بكلالها الطبيعى ، لابد ان تعتبره الجماعة القوية شيئا من تراث امسها الغابر ، تقبل عليه بالرعاية والايناس وتوليه اكبارها ، وتعود الى رأيه المستمد من ذخيرة تجاربه الواسعة ، وتأملاته الهادئة فيكون بهذا قائد حركتها ، أو معنى بارز الاثر فى قيادة هذه الحركة .

وهذه امرأة فقدت ابنها القوى الذى كانت اياديه على الجماعة ماتنقطع فقعد بها الحزن عليه ، وافتقاد الاعجاب به ، والراحة الى قربه . تكون مصيبتها رمزا لمصائب الجماعة . وبعثا لاحزان الامهات والآباء فيها فتجد النفـوس فى مواساتها ، وتخفيف لوعتها واعانتها على قطع المرحلة الباقيـة لهـا ـ واجبـا ، يستنبط الشعور بضرورته ، شعور الرقة والعطف ، والارتياح الى الاحسان .

وهكذا تنشأ العواطف أجزاء ثم تتواءم ، ويزداد أثر الشعور بها ، والحاجة الى المبالغة فيها والاستزادة منها . وضوحا فى النفس بأزدياد بواعثها وأسبابها ، حتى تكون اخيرا النداء الملح الى بروز الفضائل ، وتكوين إعتباراتها الاولى .

وكما كانت اللغة فى أصل نشأتها أصواتا ومقاطع ، فقد كانت السلسلة الطويلة من ميراثنا الانسانى فى الفضائل حلقات ابجدية ، مشتقة من مؤثرات الحياة الاولى ، وضروراتها الظاهرة والباطنة.

وقد قلنا ان القوة فى الطور القديم كانت أصل نشأة الشعور بمحاسن الرجولة ، والميل الى تقليدها ، واتباعها . أو كانت تمهيدا طبيعيا لنشأة المحاسن الاصطلاحية ، وتمهيدا للايمان بها ، وتحتيمه فيما بعد .

ومن ينكر هذا على الطور الذى كانت فيه القوة الجسدية ، مصدر الاعتبارات كلها ؟

ألسنا فى القرن العشرين وفى دولة الفكر ، نرى ان القوة مصدر السلطان ؟ وان سلطانها عطل قوة الروح ، واعتاق نفوذها ، وقام يرسم للاخلاق حدودها الجديدة ، كما يفعل القائد لجنوده ؟

ألسنا نرى عصف القوة بالمبادىء الخلقية والانسانية ، وعصفها بالضعف والقلة وخنقها لشعور الانسان بحرية اختياره حتى فى نفسه ؟

اذن فالطور الغشيم ، ونقصد به الطور البدائى انتهى بالجماعة الى أعتبارات روحية ، زاحمت فيها قوة الجسد ، قوة اخرى معنوية ، تحولت عن قوة الجسد .

قوة اخرى معنوية ، كان يمثلها رجال أقوياء (أجساد قوية) مات بعضها فى ابان نشاطه مخلفا ذكريات حياته النابضة فى الاسرة والجماعة ، وبقى بعضها ماثلا ، وقد اعياه الكفاح القديم وأضناه هذا من تراث الماضى .

ماضى الغلاب والعوادى والظلمة .

هو قوة ولكنها ذابلة حائلة . فهى بالضعف اشبه ، بل هى ضعف ولكنه ضعف محترم محبوب .

هى شيخوخة الأم وشيخوخة الأب بل هى الشيخوخة فى غير الأم والأب وهى الزمانة والكلال فى الأخ والرفيق ، وفى غير الأخ والرفيق .

وهى طفولة طفل خلفه فرد من الاسرة ، او فرد قريب من الجماعة او خلفه .. رجل .

فهذا ضعف قوى يفرض نفسه على القوة فرضا ويحتم عليها السنن والواجبات له . ويلقى عليها الاعباء تؤودها . ولكن تسرها .

وهو ضعف ينازل القوة وجها لوجه ، ولكن فى غير ميدان الجسد الذى خلفته وراءها يشرق بدم الضحايا من الحيوان والانسان . ضعف نبيل كانت الدعوة الأولى اليه صرخة الطفل وبسمته وعواطف البنوة والابوة والامومة والقرابة والاشتراك .

وهو فى يوم الجماعة الجديد ، مولود الجماعة كلها فى اول استهلاله وهو المادة الأولى فى شريعتها الادبية .

وبشير انبثاق فجر جديد ، شعرت بعده الجماعة بانطلاق حدودها ، فبدأ القانون الادبى يتألف ، تؤلفه العواطف ، ويؤلفه الشعور أو تؤلفه ضرورات أدبية .

فهذا طور من الحياة جديد ، يهزم او يخلف طورا من الحياة قديما وقد تمت له الغلبة او كادت .

لكن الغلبة هنا ليس معناها استغراق الغالب للمغلوب وليس معناها ان الناس كلهم ، فقدوا غرائزهم بل هذبوها ، وحولوها ، واتجهوا بها اتجاها يوائم مقتضيات الطور الجديد ومطالبه .

والناس منذ كانوا لايتشابهون ضعفا وقوة وهم فى اطوار الانتقالات لايتساوون ادراكا وكفاءة للاضطلاع بأعبائها والفة فروضها الجديدة ، ولايتساوون كفرا وايمانا بواجباتها ومزاياها .

وانك لترى خمسين طيرا من جنس . لايختلف فيها طير عن طير فى طريقة إحساسه بما حوله واستجابته لمطالب غريزته وفى ألفته ونفوره .

ولكنك تكون امام افراد من أسرة معينة ، فى بيئة خاصة ، فى جماعة تؤلف بينها وشائج القرابات الممتدة . فتكون امام طائفة من الاختلافات لايوائم فيها طور طورا ، ولاتطابق فيها صفة صفة ، ولايماثل فيها مزاج مزاجا .

وهكذا تكون كلما صعدت ، رأيت التمايز والاختلاف بين الناس متسعا .

والجماعات الهمجية اقرب الى التشابه ولكنه تشابه محدود ، يتـكشف لك قياسه الى تشابه الحيوان عن تناقض واضح . وان كانا فى الظاهر ، قريبا من قريب فى اعتبار موازين التقدم التمدنى او النظرة العابرة .

فلا بدع ان يخرج على هذا القانون الادبى الجديد أفراد يقل أثر الشعور بالشريعة الادبية فى نفوسهم ، اما لانها تمثل السلطة للافراد السائدين ، فهذه شارة التمرد عليهم . واما لان فوارق الادراك من شأنها ان تفعل هذا ، فلا جرم ان يكونوا عاجزين عن مسايرة التطور الجديد ، لان أثر الانانية الغريزية فيهم اوضح ، وأثر (الغيرية) اضعف ، واختلاف العوامل النفسية مايزال هكذا ، حتى عندما يكون اتجاه الجماعة متحدا .

من هنا تنشأ الرذيلة ، او تنشأ الفكرة الأولى عنها ، وتكون فى شكلها البدائى (عيبا ، او نقصا) سببه الاضراب عن مسايرة الجماعة .

* * *

كانت القوة فى الرجل مصدر الاعجاب والتقديس ، والقوة ماتعرف الهوادة فى تأمين سبيل حياتها ومطالبها .

وكان الناس يتفاوتون فى نصيبهم من هذه القوة . فامتاز فى الجماعة افراد ، تفاوتوا ايضا فى درجات تمايزهم .

(هذا أكثر استفزازا لشعور الجماعة ، وهذا اقل)

وكان الطور طور ألفة واتحاد ، وتعاون ، وهذه ضرورات فلا رذيلة ولا فضيلة وانما مقابح ومحاسن تتعلق بالجسد وكفاءته الظاهرة قوة وضعفا .

هذا يشير الى ان الفطرة البشرية ليست فطرة شر ، ولا هى فطرة خير فى مبدأ ظهورها على مسرح الكفاح للحياة ، فإذا كانت سبلها الى البقاء تقتضى الخير فعلته مطمئنة ، واذا كانت تقتضى الشر فعلته غير مكترثة .

فالخير والشر قبل ان يصبحا من مفاهيم الادراك الادبى ، فى اطوار الانتقالات الاجتماعية البطيئة ، لم يكونا خيرا وشرا ، فيما يتصل بأعمال الانسان . بل كانت هناك الحياة وكان الجسد وكانت الضرورة .

هذا انسان يريد ان يعيش ، يكمن لحيوان ويصرعه . أفى هذا شر ؟ ماذا كان فى وسعه ان يفعل الحيوان نفسه ، لو ظفر به لجعل منه مادة غذائه .

فهذه حرب للحياة ، وليست حربا لشر مقصود ، أو مفهوم .

الطبيعة ذاتها ..! ألا تحمل بدورها على العارى والضعيف والضال ؟ الا تشح بالمطر ؟ ألا ترسل الصاعقة ؟ ألا تبعث الزلازل ؟ والتغيرات المفاجئة والكوارث ؟ ألا تدحرج صخرة فتقتل بها رجلا قويا غافلا ؟ ! من يقول ان هذا شر ؟ انما هو نظامها ، وطريق مسراها الى غايتها المرسومة لها من خالقها القوى الحكيم . فهو طريق الانسان والحيوان الى غايتهما ايضا .

فى هذا الطور كان التعاون ضرورة ، وللتعاون الجماعى فرائض وسعت حدود النفس كثيرا او قليلا .

وكان ضروريا ان يتقبل فيه الانسان فرائض الجماعة ، عندما كانت حاجته الى الحماية والتعاون ضرورة وخوفه من الطبيعة قاسيا .

فاذا تغير هذا الوضع قليلا ، وقلت المخاوف من الانفراد ، وتقدمت وسائل العيش ، وتعددت ـ مال الى اظهار الشعور بحريته ، والتمتع بمزايا مقدرته وقصرها على نفسه وأسرته . وتولد عنده الميل الى المخالفة والاعتزال .

فلو أعتبر هذا فى عرف الجماعة الغالبة خروجا معنويا على اساليبها المتبعة لم يكن الخروج الذى يقتضى الحرب ، وشن الغارة . لان الشرائع الادبية فى بدء نشوئها والشعور بمزاياها ، تكون مطلبا كماليا ، او فرض كفاية يتلمس الطريق الى النفوس فى هدوء فمشاعر الجماعة هى التى كونته فما حاجته الى القوة تفرضه وتحتمه . ؟

لذلك كان سلاح القوانين الاجتماعية ، والشرائع الادبية ، القوة لا الاقناع فى الاطوار التى قام فيها مايشبه الحكم ، او القيادة (اى فى الاطوار الاكثر تقدما) .

عندما يكون الناس مختارين لايفعلون شيئا الا من تجعلهم مواهبهم ومشاعرهم الخاصة فى طور أرقى من طور الجماعة .. هذا فى القرن العشرين اوضح مما كان فى حياة الانسان الاول أو فى حياة الهمج .

إختلاف الطبقات نظام سيئ ، يجعل الانانية ، انانية جماعة ، لا أنانية فرد . الفقير يشعر شعورا متطرفا بشكوى فقد مثله أو دونه . الغنى لا يشعر كشعوره ، الا نحو غنى من درجته ، او اقل قليلا .

الفقير يعرف حرارة الجوع .

الغنى يعرف حرارة الاضطرار لبيع المنزل . المسكين عنده من اضطر لبيعه فهو فى دنيا غير دنيا الفقير .

ماتزال عواطف الرحمة ، والشفقة ، والنخوة ، ومشاركات الشعور ، فى الجماعات الدنيا ، اكثر منها فى الجماعة العليا .. (لعل هذا قانون الشعور بالضعف ، او قانون التشابه فى مؤثرات مشتركة) او لعله (قانون السذاجة" .)

النعمة لاتبطر ... ولكنها قوة تجعل الانسان انفراديا ، فهى تسد مسام الشعور والاحساس ، وتقفل نوافذ النفس .

ليس الاغنياء كلهم ولا الفقراء كلهم هكذا .
هناك غنى يشعر ، وتستجيب دواعى نفسه ، ولكن فى الألف .
وهناك فقير لايشعر ، ولايستجيب ، ولكن فى الالُف .

* * *

لم يكن فى حياة الانسان القديم فقر ، ولا غناء ، ولم تكن هناك طبقات وفوارق ، كانت الثروة جسدا قويا ، والسلاح قوة . (هذا اقل قوة . هذا قوى . هذا اقوى) وكانت المشاعر واحدة ، والغايةواحدة والسبيل واحدة .

لذلك يكون الشذوذ على المطلب الجماعى الادبى ، ضعيفا ، ومتقطعا وخافتا .

فاذا كان العهد الجديد اكثر رخاء ، واكثر أمنا ، وهو هكذا قطعا ، كان الاستغناء المفروض عن هذه القلة الشاذة ، وعما تؤديه ممكنا جدا .

فمتى ساهم الفرد فى رد الغارة عن جماعته ، وفى أداء نصيبه من الجهد إزاء الاخطار التى تهدد طمأنينتها ، ومتى عال نفسه واسرته وشارك الجماعة فى حمالاتها ، وتبعاتها المادية ، كان قيامه بالفرائض فى شريعتها الجديدة شيئا اختياريا . له قيمته ، وله جزاؤه فى العرف والاعتبار الادبى فاذا شح بما يقتضيه العطف على الضعفاء والشيوخ ، كان جافيا على نفسه . وعلى درجة اعتباره المعنوى بين الجماعة .

هكذا تشعر القوة الممثلة للشريعة الجديدة ، والقوة الخارجة عليها فى الابتداء ...

ولكن الحوادث تلعب دورها بينهما ، بعد ...

تبدأ الخصومة بين الضعف الذى كان مصدر قوة التشريع ، وسبب وضعه والذى نازل القوة فهزمها ، وحبب اليها هذه الهزيمة ، فأصبح مضدر السلطة الروحية فى قانونها الجديد وبين القوة التى رجحت اعتزال الجماعة ، والخروج على قانونها .

يبدأ التنكر والعراك بينهما ، هادئين ثم مخيفين .

وسواء أشرع الضعف (المتسلط) قانونية هذا العراك الشعرى أو شرعه الأقوياء الفضلاء باسمه فإنه المصدر . هكذا انشطر تقديس القوة - التى مظهرها كفاية الجسد - الى شطرين ، كما انشطرت القوة الى شطرين ، تحول احدهما الى قوة ذات سجايا نافعة لجماعة الضعفاء فاتسع امامه مجال التطور ، والظهور والتأثير ، لانه قوة نبيلة معقولة . والآخر قوة لا تخرج من حدود ذاتها الضيقة .

الأول قوة متعدية او منصرفة .

والثانى قوة لازمة ، او جامدة .

مازالت الفضائل المتعدية فى القرن العشرين ، وفى جاهلية الجماعات اكثر اعوانا ، واكبر نصيبا من تقدير الناس واقبالهم .

والعراك دائما يخلق ميادين النشاط والتزيد ويوسعها . وهذا عراك السجايا بين قوتين .. عراك جديد ، لانه نمط جديد .

فالفضائل الناشئة فى هذا الطور تكون مظهرا للاختيار والقصد اولا ، او مظهرا لضرورات ادبية ، ثم تستحيل ممارستها ، والحرص على الاتصاف بها الى نوع من اللذة الخفية ، وتداعى الشعور بحلاوة ماتلقاه من إعجاب وتشجيع ومناصرة .

والعزلة تتخذ مظهر الحرد والعناد والاصرار لما تلقاه من مقاومة وزراية واستغناء عنها فتمعن فيما يزيد حنق الجماعة ويسىء اليها .. هذا مفترق الطريق للقوتين .

وليس فى تغلب قوة على قوة تماثلها فى ميادين التطاحن ، شر ولانذالة كلتاهما تعمل للبقاء والسيادة ، وكلتاهما تدافع عن حق تراه حقا ، فالنزاع بينهما مشروع ، كما كان النزاع بين الانسان والحيوان مشروعا .

لكن قوة الخارجين على الشريعة الادبية للجماعة هنا ، لاتنازل قوة تماثلها .

بل تنازل ضعفا ... تحميه قوة .. فالانتصار عليه نذالة ولؤم ...

هكذا يتولد الشعور بالرذيلة ، وفهمها واضحين .

بدأت الفضيلة قوية مؤزرة ، وبدأت الرذيلة ضعيفة منكورة .

ماتزال صرخة الفضيلة اقوى ، فى نفوس الجماعة .

المانيا تقول الحق . العدالة . المنطق .

انجلترا تقول الديمقراطية . نصرة الضعيف ، حماية المبادىء الفاضلة .

لايوجد من يقول الاغتصاب ، العدوان ، سحق الضعيف ، الطمع لان الرذيلة لاتنتصر الا متى كان صوتها قويا ، وصوتها لايكون قويا الا اذا نفخت فى بوق الفضيلة .

هذا فى حياة الامم مثله فى حياة الافراد ، وهو فى القرن العشرين مثله فى القرن العاشر ، ولكنه لم يكن هكذا فى حياة الانسان القديم .

كانت الفضيلة حينئذٍ حقا ، او شبيهة بالحق ، وكانت صفات لازمة أو محبوبة ترتاح الى ممارستها النفوس ولاتستغلها .

القوى الذى يعطف على الشيوخ ، والنساء ، والاطفال : اقوى . احسن . افضل (حب) .

القوى الذى لايعطف على هؤلاء ردىء ، قاسٍ (بغض)

القوى الذى لايحب الجماعة ، ويعتزلها . يحب نفسه ، أنانى (ازدراء)

اتسع دستور القوة قليلا واتسع ادراك الجماعة قليلا .

كان الانسان يرى ويدرك بغرائزه ، وضرورات حياته . فاصبح يدرك ، بقلبه ، بوجدانه بشىء من الشريعة الادبية .

كان يرى قوة ، وقوة ، فيقيس بينهما ويفاضل (قوى . أقوى) .

صار يرى قوة ، وقوة وسجية ، فيقيس بينهما ، ويعلل ، ويستنتج (حسن أحسن) .

كان يكره الأقوى ويخافه ، ويحسده ، ويطيعه .

الآن يعظمه ، ويحبه ، ويتَّبعه .

صار مختارا بعد ان كان مضطرا .

هذه خطوات الجماعة .

خطوات الفرد الخاصة غير هذه ، تختلف كثيرا عندما ينفرد .

يرى الانانية حقا اذا كان قويا ..

ويراها باطلا اذا كان ضعيفا .

ما تزال الجماعة أقل دقة ، وأسرع ايمانا ، وأعمق استجابة ، من الفرد ..

* * *

تضيق حرية الفرد كلما تقدمت اطوار الجماعة اجتماعيا ، وكلما تكاثرت الروابط الاجتماعية واتسعت الحدود لحرية الجماعة فيها .

لا يعود من مصلحة الجماعة ، اطلاق الحرية للفرد ، أو للاقليات ، فتنشأ شرائع وضعية ، يضعها الاقوياء ، المسيطرون على الجماعة ، تكون خلاصة لشرائعها الادبية ، التى تصبح بالتدريج معتقدا عاما .

فالشريعة التى تكون فرائضها الادبية ، فرائض كفاية ، أو فرائض اختيارية ، تنقلب قانونا لا معدى عن طاعته .

والمحاسن التى كان مصدرها الجسد والقوة ، وجاء طور أصبحت فيه اساسا لشريعة ادبية يجيء عليها طور آخر ، هو طور التلقى والمزاولة ، لابد ان تكتسب فيه صفة التقاليد الواجبة ، ولابد فيه من ممارستها ، ومحاولة تحويلها الى خصائص نفسية ، وفكرية ثابتة (أخلاق ومعتقدات) .

ولسنا نعنى طبعا فى كل ما تقدم ان الانسان فى هذه الاطوار كان يضع الاسماء لمسمياتها على وفاق ما نشعر به ازاء ادراك معانيها ، وشيوع الاحساس التام بها فى نفوسنا . انما نعنى ان اعجابه بالقوة وبمحاسنها ، وشعوره الادبى بمعنويات الحياة والنفس ، كان يقوم مقام هذه التسميات ، ويرمز الى مسمياتها ، أو الى ما يشبهها .

ومن المؤكد ان تطور اللغة فى الحياة الأولى لهذا الانسان ، كان أبطأ كثيرا من تطوراته الاجتماعية والفكرية ، فالشعور والادراك يسبقان عادة التسميات والفاظها . نشعر أولا أو نرى ، أو نعرف ، ثم نسمى !

ومن المحزن حقا انقراض الاصول الاولى للغات ، فقد كان وجودها حريا بأن يوسع آفاق حياتنا الفكرية ، وبأن يحدثنا ألذ الحديث وأشهاه عن تواريخ تلك التطورات القديمة التى رافقت كفاح الانسان فى اطوار انتقالاته الاجتماعية ، والنفسية ، والفكرية .

كيف حارب الانسان ؟ كيف كانت همومه ؟ كيف فهم السجايا التى صارت أساس شرائعه الادبية ؟ وكيف آمن بها ؟ وكيف سماها ؟ كيف نشأت الآداب ؟ كيف نشأ الشعر ؟ كيف كانت أساليبه وموضوعاته ؟ كيف غنى الانسان ؟ كيف تحمس وفاخر ؟ كيف تعبد ؟ كيف احب ؟

هذه الحلقات المفقودة ، جزء من تقدم شرائعه الادبية ، بل هى اهم اجزاء هذا التقدم ودلائله وهى سبيل الفهم اليقينى أو ما يقاربه .

* * *

قبل أن ننتقل الى تحليل الفضائل نتحدث اليكم قليلا عن طور التلقى والمزاولة ، وهو الطور الذى يتحول فيه الشعور بالسجايا والافكار والشرائع الى معتقدات لا شعورية أو الى خصائص نفسية وفكرية ثابتة .

الانسان الصغير الجديد فى الطور الثانى أو الثالث ، يتعلم بسهولة ، ما كان يتعلمه جده القديم بصعوبة ، ويعرف ما عرف أبوه وامه واجداده فهو يعرف أكثر ..

كان الجد القديم يتلقى عن الضرورات ، وعن الطبيعة ، وعن التجارب ، فأصبح الناشىء يتلقى عن هذه ، ويتلقى عن الجماعة ، ذخائر تجاربها ، ومحاسن حياتها ، وغرائب اكتشافاتها ومعتقداتها ، وفرائضها وأوهامها .

الحياة رخاء ، وأمن ، فهى متسعة ، متعددة السبل .

كان الطفل القديم فى الاطوار الاولى يخاف ويساهم بنصيبه فى احتمال قسوة العيش وأعبائه . وهو اليوم يمرح ويلعب ، ولا يحمل عبئا ، الا ما كان من قبيل التمرين والمحاكاة حتى يشتد .

عرف الفكاهة والعبث ، كما يفعل الكبار حين يلعبون حول النار .

الكبار ذوو سجايا ، وخبرة ، ورحابة فهم ، فهو يقلدهم .

يراهم يمثلون الحوادث التى تقع بعيدا ، حيث الصيد والمغامرات ، ويقلدون الحيوانات ، حركاتها وأصواتها . فيحاكيهم .

التمثيل قديم فى حياة الانسان . الارجح انه عرفه بعد أن عرف النار . وتجمع حولها للدفء واللعب والحديث ..

والرقص فرع من فروع التمثيل . هذا معقول ..

رجل لذعته النار ، فقفز ، وتوثب على رجل واحدة . وامسك موضع اللذعة بيده .

هذه مفاجأة ، يضحك لها الناس ، لان فيها شيئا غير الجد المحض .

اذا قلده احدهم ضحكوا اكثر .

هذا تمثيل ، ثم رقص .

هكذا اتسعت الحياة رويدا .

الناس يمثلون ويقلدون بعضهم فى الجد وفى الهزل ، تحبهم الجماعة .

الانسان الصغير ، يفعل فعلهم بسهولة ، لانه اذكى ، طفولته أوسع مدى من طفولة جده . كذلك الطفل فى المدينة الحافلة ، اذكى من نِدِّه فى القرية وفى الريف ، واوسع افقا .لكثرة ما يتوارد عليه من الصور .

يزاول الطفل .الشجاعة العطف . احترام الشيوخ .. الاحسان الى الضعفاء ، اعمال البطولة ـ بوحى من نفسه . وبإيحاء من أبويه ، واسرته ، ومن الجماعة .

يزاولها على انها فضائل يتحتم الايمان بها ، وعلى انها محاسن وسجايا يتصف بها الأقوياء الممتازون .

فالفضائل أو بعضها فى هذا الطور مزاولة وتقليد ، يستحيلان الى أخلاق ثابتة ، ومشاعر،بعد قليل أو كثير .

والمزاولة أقدر على ترسيخ الفضائل ، وتحويلها الى مشاعر ثابتة،وأخلاق مغلغلة فى النفس من احكام الضرورات الطارئة والمتكررة ..

* * *

أعتقد أنى اسرفت كثيرا فى سوق الامثلة وحشدها ، وأظن انه لم يعد صعبا ان نساير جميعا هذه الطريقة الى حدود أبعد .

هذه الحلقات الأولى من السلسلة ، أو الدرجات الاولى من السلم ، فلم يبق ما يمنعنا من التصور .. والتخيل .. والمسايرة ..

فى وسعنا الآن ان نتصور ما يفعله التقليد ، وما تفعله المحاكاة ، وما تفعله ضرورات الطور الجديد ، ومطالبه،فى استكمال معانى الفضائل واقامة حدودها. وفى ترسيخها،وتوليد المحاسن منها .

* * *

قلنا ان الغرائز هى مادة التكوين الباطن فى الانسان والحيوان .

وقلنا ان الضرورات المتصلة بالعيش ، وبنداء الحياة الملح . دفعت الانسان الى ان يخرج من أُفقه الضيق ، الى آفاق اكثر رحابة،خفتت معها اصوات غرائزه ، وخفيت ، أو تلطفت ، على قدر عراقته فى الاكتساب الاجتماعى من مراحل التطور التى يقطعها .

وقلنا أخيراً ان المزاولة والتقليد أقدر على ترسيخ السجايا ، وتحويلها الى مشاعر وأخلاق ثابتة ، من احكام الضرورات .

ونود هنا أن نجرى التجربة على الحيوان ، لنختبر صحة افتراضاتنا التى بنيت عليها هذه النتائج ، ونصيبها من القوة .

فالحيوانات مزودة بالهام غرائزها الى حد الجمود ، ولكنها قد تكتسب بالتجارب المكررة،ما يضعف عمل هذه الغرائز ، ويحولها،فيهذبها ، أو يزيدها قوة وضراوة .

ومفهوم ان مجال التطور الطبيعي امام الانسان ، غيره امام الحيوان . فنشأة العواطف فى الانسان ، أو ذوبان غرائزه الأصيلة ، وأنانيته الآبدة ، لم يكن نتيجة عوامل تهذيبية أو تقليدية ـ إنما يكون هكذا بعد اتساع أفقه]، وإنما كان نتيجة عوامل شعورية ، ووليد عوامل ضرورات حيوية ، ثم معنوية ، ثم ادبية ، لا تخرج فى شتى صورها وامتزاجاتها عن أنها ضرورات ، متحولة عن ضرورات .

والحيوانات التى اتصلت اسباب حياتها بحياة الإنسان الاجتماعى ، فقدت بعض غرائزها ، أو خفتت أصوات هذه الغرائز فيها بعامل التدريب والتجربة .

فالكلب والقط يحبان الوطن كالإنسان . ويشعران بقانون أدبى محدود ، لأنهما أكثر علاقة بالإنسان فى محيط حياته الخاصة .

القط يألم للزجر . ويحزن لفقد سيده ، ويعلن الحنين اليه ، ويتأدب بدافع شعوره بالعطف عليه ، ويفسد بانقطاع هذا العطف عنه ،ويغارُ من قط يزاحمه على مكانته عند صاحبه .

والكلب يتعلم الأمانة والصبر والحب واليقظة والشعور بقوانين العشرة الأدبية ، ويتأثر بالإحسان ، والواجب ، ويقلد الانسان فى شعوره بالحماسة والفخار والزّهْو لأن صلته بالانسان كانت ولاتزال اوسع نطاقا ، وأقدم عهداً .

وقد ينحط الكلب أو يتشرد ، فيستحيل تأثير سجاياه القديمة ، الى ما يشبه الأسى العميق والجفوة الكئيبة .

والحمار ـ وعلاقتى الأدبية به قديمة جداً ـ وعفواً ـ، تضيق دائرة إتصاله بالإنسان ، ولا تتخطى حدودها الضيقة ، لذلك كان تطوره التخلقى،أقل مرتبة من تطور الكلب .

فهل كان هذا هكذا ، لأن الحمار أضيق مَدىً فى إدراكه الحيوانى ، وأصلب غرائز من الكلب ؟ أو لأن هناك استعداداً غريزياً هيَّأ الكلب لأن يكون حارساً ورفيقاً ، وللحمار أن يبقى كادحاً ؟؟

كلا !!

ولكن خفة جسم الكلب ، وقوة صوته المتزنة ، ودقّة شمّه ، ومقدرته على تصوير مؤثّراته وتشكيلها بهذا الصوت ، وقلّة مُؤْنته ، وسرعة عَدْوه ، ساعدتْه على الدُّنوّ من الإنسان كرفيق وحارسٍ ، وطبعتْه التجارب المكرورة ، وشعوره بضرورة إدراكها ، بطابعها الخاص .

فيتضح مما تقدم،أن التقدم بغرائز الحيوان وتحويلها إلى طور الإدراك ، والتعقل ، ممكن ، متى تعلقت وسائل هذه المحاولة بضرورات عيشه أيضاً ، ولكن هذا التقدم لا يتمّ إلا بعمل التجارب ، وبأن تجىءَ على يد الإنسان .

فالكلب فى الحضارة الرّاهنة ، ينقذ الغرقَىْ ، ويتعقب المجرمين ويُدعَى للشهادة فى المحاكم ، ويعاون الجنود ، ويترصّد الأشقياء ، ويخدم العدالة.. والمجال أمامه مايزال واسعاً جداً للتطور .

وبعض الخيول ترقص على نغمات الموسيقى ، رقصا مدرسيا موزونا ـ عفوا اخوانى المدرسيين وبعض القردة العليا فى امريكا واوربا تعزف على آلات موسيقية عزفا دقيقا .

ولبرناردشو ـ الفيلسوف الانجليزى ـ حمارة ما أشك فى أن لها نصيبا وافرا من الادراك تخطت به حدود بنات جنسها وابنائه كثيرا إن اطرد القياس،وما له لا يطرد .

وكثير من الحيوانات تطرب طربا هادئا أو عميقا ، للحداء ، والغناء ، والموسيقى فهذا يشير الى علاقتها القديمة بالفن؟والى أن لها حسا غير حسها الحيوانى .

حسا وجدانيا مثلا ..

فهذه نتائج التدريب والتهذيب والمزاولة ، ووحى ضرورات العيش ، وتأثير المشاركة الطويلة فى الحيوان ..

يقابلها فى الانسان ضعف غرائزه الاولى ، وما اقتضاه هذا الضعف من التكتل الجماعى ، وما أدى اليه هذا التكتل من نشاط القوة التعقلية فيه ، وما مهد له هذا التعقل من ضيق حدود انانيته ، وتحولها الى غيرية أولية ، حتى عرف القانون الادبى بعامل شعوره العاطفى ، وحتى اخذ فى توسيع مدى هذا القانون ، متابعة لمقتضيات تطوره المستمر .

* * *

انتهى بنا الكلام الى العهد الذى قامت فيه بعض الفضائل ، التى صارت الجماعة الى الشعور بها ، والاستجابة لأحكامها . وبينا كيف تتولى المزاولة والمحاكاة تحويلها، الى أخلاق ومشاعر،أو ملكات نفسية،وفكرية .

اما كيف تتناسل الفضائل بعد ذلك وتتزايد ، فجوابه عند حياة الانسان الاجتماعية،واطراد جزرها ومدها ، وعند تقدمه الفكرى ، واتساع افقه .

ونظن ان القوة التى يمثلها الابطال والزعماء ، هى التى كانت ترتجل بعض الصفات التى تغرى الجماعات بالحب والتقديس ، وتحبب اليها الطاعة والانقياد والالتفاف،حول مرتجليها ، فتحب وتدعى محاسن او فضائل ، وتدعى اضدادها ونقائضها ، معائب أو رذائل ..

فالقوة اقدر على الارتجال والوضع . لانها اوسع مجالا ، واوضح غنى ، واقدر على الاضطلاع بمسؤوليات ما ترتجل ، واعمق ميلا الى توسيع دائرة النفوذ ، واطلاقها .

ولاشك ان الطور الذى حارب فيه الانسان ، اخاه الانسان (طور احتكاك الجماعات) هو الطور الذى كان يلد كثيرا من المعائب والمحاسن،والذى اتسع فيه منطق المقارنة والوزن والمقابلة ، والمبالغة والتهويل .

فالجماعة القاهرة ، تلجأ بعد اصابة غرضها الذى ساقها الى الحرب الى اساليب من المعاملة ، تكفل الدوام والرسوخ لانتصارها،كاطلاق الاسرى ، والعفو عن الجناة،والمبالغة فى إكرام النساء والشيوخ ، والاضطلاع بحماية الضعفاء لاجتذابهم،واتخاذهم مثالا مغريا للمناهضين الاقوياء ، وبسط اليد بالعطاء ، وفرض قانون العفة .

وما يزال هذا مشاهدا فى كثير من أحوال الفتح والاستعمار .

والجماعة المقهورة تعاب بالضعف ، وتلفق ضد أفرادها المتسلطين حكايات يصنعها الوهم،أو يبالغ فيها .

فى جاهلية العرب كانت الجماعات المنتشرة ، تتنافس للاشتهار بالقوة ، فما يتهيأ لها هذا بالغزو ، وقوة الشكيمة فيه ، كما يتهيأ بانتشار القالة الحسنة عنها، وبذيوع المحمدة . فكانت شارة القوة والمنعة للجماعة ، أن يكون أفرادها البارزون ، وزعماؤها المسيطرون ، كرماء وهابين ، وذوى غيرة على الجار ، وعطف على الغريب ، وإكرام للطارق والقاصد ، وحماية للاجىء المستجير .

وكان هذا التنافس نفسه ، أسلوبا من أساليب الغارة والحرب،ودلالة على اتساع نفوذ المقدرة على الكسب،والانتاج .

وكانت لكل جماعة صحيفة أو أكثر ، تنافح عن سمعتها ، وتبالغ فى نسبة الكمال والفضائل اليها ، والشاعر هذه الصحيفة .

وكان هذا كله مظهرا لمذهب الفروسية الذى ساد فى ذلك الطور الهمجى .

* * *

أردت بهذا التمهيد ، الذى تناول أطرافا من الفروض والاقوال ، وأساليب من التمثيل،والاستدلالات ، والأقيسة . أن تقوم الفكرة التجريدية عن نشأة الفضائل واضحة كل الوضوح فى اذهاننا . ويسرنى أن أشعر بأنى وفقت فى هذا ولو قليلا .

واعترف لكم بأنه لايؤذينى ، أن يعد كثيرا من هذه الفـروض والأمثلـة المزجاة خبطا وخلطا . فان الذى يحاول الاقناع عادة ، لا يستقيم له ما يريد بالحجة والمنطق وحدهما . ففى الانسان شيء غير العقل المكين والعلم الراسخ . والعقائد الثابتة . فيه الوجدان ، وفيه مشابه الانسـان القديـم ، واستجاباتـه الخاطفة.وفيه الضمير الفطرى الذى يؤمن باحكام العقل ومنطقه قليلا ، ويكفر بهما كثيراً ..

فيه هذا الحس الداخلى الذى يكونه تاريخ طفولته القائم فى دمه ، وتاريخ وراثاته الذى يعد عاملا له قوته . هذا الحس الذى يتسع فيه أفق الشعورات المبهمة حتى ما تحده الحدود . ويضيق حتى ما يرى سبيلا غير سبيله ..

وعسانى ـ إن فشلت فى اكتساب العقول ـ لا أفشل فى اكتسـاب عطف الضمائر والنفوس ـ واقناعها . وأى شيء فى الفضائل والرذائل ، يمكن أن تكون صلته بالعقل،أوثق من صلاته بالعواطف والنفوس والخيالات والضمائر ؟ بل أى شيء منها يمكن أن يكون أقدم علاقة بالعقل،أو أدنى قرابة اليه ، من الفطرة الأصيلة ؟ ..

* * *

ينبغى الآن أن نستنتج ، أن الفضائل انانية مهذبة ، وان الرذائل انانيـة عارية .

وان الفضائل أدل على القوة وانطلاقها ، والرذائل ادل على فتورها وضيقها. وقد كان الجسد فيما مثلنا ، مصدر القوة ، أو مظهرها . ومعيار الحكم عليها،فى بداءة الحياة .

أما فى الاطوار الاكثر حضارة فيكون مظهر القوة مدى الاستطاعة والمقدرة على ضمان الرغائب .

فالثروة أقدر على تحقيق المطالـب والرغبـات ، وبسـط النفـوذ ، من قوة الجسد ، وقوة الفكر . ومعيار الفضائل والاخلاق فى هذا العصر وفى عصـور قبله ، القوة بمعناها الجديد (الثروة ـ النفوذ) .

فايمان الناس بالقوة (فى معناها الجديد) ايمان معرفة وتقدير . أما إيمانهم بالفضائل مجردة ، فإيمان خيالى أو شعرى .

وليس أدل على ذلك ، من أن أية فضيلة لا تكون مظهر قوة ، لا يكون الايمان بها الا شبيها بالكفر والانكار .

واعتقد أنه لا يسع أحدا أن ينكر أن كل فضيلة لا يكون المتصف بها قويا ، لا تكتسب فى نظر الناس معنى الفضيلة ونفوذها .

فأنا إذا عطفت على مريض ملقى فى الطريق ، وواسيته ، لا أنال التقدير يناله رجل بارز فى المجتمع يفعل فعلى .

بل إنا نرى أن بعض المعائب والرذائل يوسع لها العرف العام صدره ، متى كان المتصف بها قويا ذا نفوذ .

ولو شئنا أن نذهب هذا المذهب فى الاستقراء والمقارنة والتجريد ، لألفَيْنا أن الصراحة فى رجل ممتاز ، تعد نبلا وعظمة وقوة طبع .

وانها فى رجل ضعيف الاثر فى تقدير الناس تعد تفاهة وغثاثة وثرثرة ، وضعفا عن ضبط النفس .

والأثرة فى عظيم قوى ، دلالة على امتياز شعوره بنفسه ، واعتداده بها فهى حق معترف به . ولكنها فى انسان وسط ، باطل ، وخروج على سنن الحياة المعروفة ومألوفاتها المتبعة .

ورقة الجانب والبشاشة ، والدعة ، وصدق الشعور ، والأريحية ، ونبل الاتجاه والايثار فى رجل فقير ، لا تساوى كلها فى ميزان الفهم والاعجاب ، ابتسامة فاترة أو إيماءة مكرهة ، من رجل ذى نفوذ . ولتكن بعد ذلك بارقة كاذبة ، لا امل فيها .

والناس ما يزالون يترنمون بالصدق ، ويحضون عليه ، ولكنا لا نجد له أثراً بينهم .

وقد اصبح الكذب ، وما ولد من رذائل المكر والخداع والمداهنة ، والتصنع ، والمداورة ، والرياء ، قانون الحياة الاجتماعية .

ونحن نتمدح بصدق الوعد فى الرجل المرجو ، ولكنا نكره ألا يعدنا بتحقيق مطالبنا ، حتى ان كان تحقيقها غير ممكن .

والرجل اذا قال هذا غير ممكن كنا له أشد كرها .. نحب ان يعد ولو لم يفِ لان الصدق فى هذا الموقف تخييب قاطع للأمل ، والوعد الكاذب عزاء ، ولو بباطل .. اذن فالكذب يلقى تشجيعا .

تفطن الناجحون لهذا الضعف،فلا تلقى (للا) أثرا فى صلاتهم . بالناس فلا جرم ان استحالت حياتهم كذبا مألوفا ترضاه النفوس ـ وما يصدق على الكذب،يصدق على رذائل اخرى ..

فاذا قال قائل.ان حظ الفضائل آخذ فى الادبار ، لم يقل الا بعض الحقيقة ... الحقيقة كلها ، ان حظ الفضائل قد ادبر أو زال .

فنظرتنا الى الفضائل بعد قياسها بهذه الاقيسة الصريحة ، التى مهدنا لها بعدة امثلة ، خليقة بان تفقد حماسها وحرارتها ، واوشك ان أقول املها .

وقد بينا ان بعض الفضائل كانت تقاليد بهيجة ، تحولت بالمزاولة والتشجيع الى مشاعر واخلاق ثابتة ، يوم كانت الحياة اقل تعقدا ، ويوم كانت الجماعة اسرة مكبرة،تتوحد فيها المشاعر والمقاصد ، وتقوى بينها الروابط الطبيعية ، أو يوم كان الاتصاف بها ضرورة لتوسيع مدى النفوذ ، وبسط سلطان القوة ، بين الجماعات المناورة .

وهذه كرة الزمان تفقدها سحرها ونفوذها .. شاخت وضعفت ، كما يشيخ ويضعف ، كل شيء فى الوجود ..

كانت شيئا جديدا فى حياة الجماعات ، وشيئا لامعا يزيد روابط التماسك الجماعى،وقانونا فاتنا يتضمن حماية الضعيف . ومعنى الاعتراف بقرابته من الجماعة القوية . ويتضمن معنى السمو بالقوة والرجولة ..

وكان القانون الادبى معنى لذيذا تسرب فى روح الجموع فساد وظهر كما يسود كل مبدأ شريف المقصد ، تستمد منه الجموع روح الامل والعزاء والتفاؤل ، وتستروح منه نسمات التساوى مع القوى .

ومازالت الجموع هكذا ، تستمد من فهمها للفضائل ، ومن الايمان العميق بها ، روح الامل والعزاء .. ولو كانت وهما خلابا .

ومن السهل ان نحدد وقع هذه الالفاظ الساحرة فى نفوس الجماعات الأولى : الشفقة ، العدالة ، الخير ، الثبات ، التضحية ، الايثار ، العفة ، الصدق ، متى عرفنا ان كلمات : المساواة ، الحرية ، الاشتراكية ، الحق ، المبدأ ، حماية الضعيف ، الديمقراطية ، تفعل فعل السحر فى نفوس الملايين وتقودهم الى التضحية فى القرن العشرين ، وتنزل من نفوسهم وافكارهم منزلة الاحلام البهيجة ، وتخدر اعصابهم بصورة ذلك الفردوس الارضى الذى تزوِّره القوة ـ أو الفلسفة.

وبالرغم من أن العقل لا يؤمن بامكان المساواة والحرية ، المطلقتين ، وبالرغم من ان منطق الحياة يجعل الحق دائما فى جانب القوة.وبالرغم من أن حماية الضعيف ، وضمان حقوقه الانسانية ، ليست اكثر من وهم فعال تسخر به الجموع ، وبالرغم من ان الاشتراكية حلم لم تحققه سلسلة الجهاد الطويلة فى آلاف السنين ، فان النفوس ما تزال ترتاح الى هذه الاوهام الباطلة ، وتحرص على أن تبقى لها .

فهل الفضائل الفاظ اخترعها القوى ووشاها بالاحلام والتهاويل لاستغلال الضعفاء ؟.أما تيارات الحياة المتدافعة فانها تندفع فى سيرها تكتسح الضعفاء ومبادئهم وآمالهم واوهامهم وتكتسح الفضائل والاخلاق لا قانون لها الا القوة ؟؟

وارحمتاه للضعفاء . لماذا لا يتعلمون فن القوة اذن ليكونوا أقوياء أو ليتقوا شر القوة ؟..

صحيح ان الايمان بالفضائل فى المعتقدات العامة لا يمكن ان يموت أثره فى النفوس .

وصحيح ان المشاعر والمعتقدات الثابتة فى الفضائل ، تكون اقوى نواحى القوة فى روح الامة ، والجماعة ، والفرد ، لكن هذا الايمان ، وهذه المشاعر والمعتقدات اصبحت فى نفوس بعض الافراد والجماعات نقطة ضعف تستغلها القوة ..

كم من المجازر البشرية انقادت الجماعات اليها مأخوذة بوهم الحق والعدالة ، والدفاع عن الفضائل المستباحة ؟ والقوة من ورائها لا هية عابثة،تعد الاغلال والاكفان لهذه الجماعات بعد الانتهاء من جهادها ؟

وكم استغلت اطماع القوة،مشاعر الجماعات ومعتقداتها،باسم اقامة موازين الفضيلة والحق ، حتى اذا بلغت غايتها بهم ، اقامت موازين العسف والجور والرذيلة،عارية مكشوفة ...؟

ما ننكر أن تاريخ كل أمة حية لا يخلو من محاولات اصلاح يقوم بأعبائها فرد ، أوأفراد تصح نزعاتهم الى الخير ، وتصدق جهودهم فى الدعوة اليه .. ولكن سرعان ما يبتلعها الزمن ، وتطويها القوة .

ويستحيل أن تتحول تيارات الحياة الجارفة عن مجراها الطبيعى ليقوم ميزان الفضائل بحقه فى قيادة الحياة ، وتسيير دفتها .

ويستحيل أن تصاغ الحياة فى قوالبها الأولى ، وأن تعود الى قوانين الفطرة القديمة ، وأن يتقلص ظل التمدن الاجتماعى الى حدود هذه الفطرة ، ليعاد ترتيب الفضائل والرذائل على ما يضمن للحياة استقرارها وسموها ، وفقا لما يقننه منطق العقل الانسانى البصير !

وها نحن نزن الفضائل ـ كما هى فى واقع الحياة ـ ونحللها ونسبر غورها فما نراها إلا الفاظا براقة ، وخيالا ساحرا،ومبادىء لامعة ، لا يمكن ان يتكون منها

روح عام لجماعة من الجماعات او لأمة من الأمم ؛ بعد ان تقدمت الحضارات ، واندفعت فى سبيل القوة والطغيان ؟

ولا نرى الفضائل - فيما تمارس -إلا أنانية راسخة تقوم على النفع يرتجى ، أو على اللذة تبتغى ، أو على الأمل يطلب ، هى وسيلة تحقيقه .

وهنا قد يسأل سائل عن سر اعجابنا بالفضائل ؟ والجواب أنه ما من فضيلة تمارس إلا وفى أطوائها دلالة على قهر النفس ، وكبح غرائزها وجهاد لمطالب هواها ، فلا جرم أن يكون اعجابنا بها ، إعجابا يؤدى معنى الاعتراف بقيمة شيء نجد صعوبة فى اكتسابه ، أو نحس هذه الصعوبة فى اكتسابه - وما تغلو قيم الاشياء عادة الا بمقدار الصعوبة فى الحصول عليها ، وإلا بمقدار الحاجة اليها ..

والفضائل صعبة ولكن لمن يكون ايمانه بها إيمان تضحية لا تنظر الى جزاء وبيت المتنبى :

لولا المشقة ، ساد الناس كلهم الجود يفقر ، والاقدام قتال .

تعليل دقيق لهذا الاعجاب ، وان كان تعليلا ظاهرا للعجز الشائع عن السيادة والاقدام .

فالايمان بالقوة ونفوذها ، هو حقيقة الحياة ، وهو قانونها فى القرن العشرين. وفى القرون الأولى ، وفى أطوار الحياة القديمة البعيدة !

والدعوة الى الفضائل حلم جميل بالحياة ، كما يجب أن تكون ، لا كما هى كائنة ، حلم ما تحققه الا القوة .

فمن يسعه أن يتكهن بأن الاتحاد مصير القوة والفضائل ، والعالم مندفع فى سبيل الطغيان والجحود ؟؟..

نتقدم الآن الى تحليل بعض الفضائل وتجريدها ، والمقابلة بينها وبين نقائضها ، لنرى صحة قولنا ان الفضائل انانية مهذبة ، وان الرذائل انانية عارية .

فالكرم لا شك ، صفة فاضلة،تنطوى فيها صفات تتعدد مسالكها ودلائلها، وهى ككل صفة ، لم تنشأ هكذا كاملة السمات ، بل تدرجت فى سلم التطور حتى بلغت غايتها المعروفة .

وقد قلنا ان الانسان فى حياته الأولى ، كان يمتحن بعواد من الجهاد ومفاجآته الطارئة،تتطلب المعونة والنجدة .

فى هذا الطور قد يزيد من نشاط الانسان الكادح ، فضل يتخذه يدا على الجماعة ، ولا تزيد من طعامه فضلة .

فالطعام يدخر،وفى عدم ادخاره استهداف لمضرة الجوع والفقدان ، ولكن النشاط يبذل ، وفى بذله منفعة ، تعين على تمرين القوى وحفزها ، وتعين على اتساع وجوه الحيلة ، واستمراء لذة الظفر والاكتشاف،ونشوة انتشار الصيت . وهو بعد ، قرض واجب الاداء على الجماعة ، فى الغد الغامض . وضرورة من ضرورات التكتل لدفع المخاطر ، والاستئناس والسلوة ، وتقليل هيبة المخاطر المترصدة له .

فالنجدة إذن أول معانى الكرم .

والكرم لم يكن فى أول نشأته تضحية وإيثارا ، وغراما بالبذل ، إنما كان ـ ولايزال ـ دلالة افتخارية على اتساع نفوذ القوى ، ومقدرته على مواصلة الجهد والانتاج.على انه لا يتناول إلا الزيادة ، وسبيل تعويضها مجهودة هينة ، بعد اتساع رقعة التجربة والسعى ، وامتداد مذاهب الحيلة ، وحنكة المزاولة ، واتساع الثراء ..

ثم هو بعد صفة لازمة لمن تحلهم قوتهم من الجماعة محل الأبطال والقواد، فالكريم أكثر أعوانا،وابعد صوتا،واعمق أثرا فى النفوس،وأرفع منزلة فى العيون ، ولايزال فى الناس من ينزلهم كرمهم منزلة الزعماء المسيطرين .

والكرم فضيلة متعدية ، لذلك كان الثناء والإقبال على تمجيدها . أكثر من الثناء والاقبال على تمجيد العفة ، مع أن العفة قهر صارم للنفس ، ورمز للقوة ،

أكثر مما يكون الكرم الذى هو فى معناه، وطبيعة دوافعه ، انتفاء للخوف من الفاقة ، أو توكيد للمقدرة ، أو استغراق في لذة نفسية ، أو سعى وراء مطلب أدبى ، يكون أغلى من المادة المبذولة فى نفس الباذل .

والبخل فطرة رشيدة ، تأخذ بحساب دقيق ، وتعطى بحساب أدق . وهو رمز للخوف، وما يعيب الانسان أن يخاف إلا ان كان يعيبه أن يكون آدميا ..

والبخل إن كان رذيلة ، فهو رذيلة لازمة إن كانت شرا فى ذاتها فليست شرا على غيرها .

وهو إن دل على قصر الذهن.وفتور حيوية الفكر الطامح.وضيق مدى النفس والخيال ، فى مجال المعنويات المنطلقة ، دل على فهم عميق لطبيعة الحياة ، وحقيقة الناس ، ودخائل سرائرهم المطوية .

فان كان الكرم شعرا وحماسا ، وخيالا جميلا . كان البخل حكمة وفلسفة وفهما عميقا .

والكرم يعطى ليأخذ .. والبخل اكتفاء ... وما عاب الناس البخل ، إلا لما فيه من أثر الانانية الواضحة . والاعتكاف فى حدود الذات ، ونحن نراه أنانية محدودة قانعة ، ونرى الكرم انانية واسعة جشعة،همها استرقاق النفوس والألسنة ، وذيوع الفخار ، وتحقيق المطامع،والاستمتاع باللذة الخفية .

* * *

والشجاعة ليست خلقا طبيعيا فى الانسان فما يتصف بها الناس إلا اضطرارا ، أو فرارا من عار ، أو طمعا فى تحقيق غاية ، أو منافسة لند ، أو دفعا لسبة ، أو خطأ فى تقدير نتائج المخاطر .. فبماذا من هذه الأسباب تستحق أن تدعى فضيلة ؟

والجبن فى منطق العقل السديد ، وليد الخوف ، والخوف ليس منافاة للعقل ، ولا للطبيعة الانسانية ، فهو أقوى غرائز الانسان ، وأداة شعوره بالاخطار ، وسبيل تجنبها ..

فاذا خاف الجبان مجهولا ، فشأن النفس البصيرة أن تخاف المجهول ، واذا خاف المجازفة،فانما يرجح السلامة والهدوء .

إنما كان الجبن سبة أو عيبا ، يوم كانت الدنيا قائمة على المجازفة ، ويوم كانت حربا شعواء بين الانسان ، ومطالبه الصارخة ، وبين الطبيعة بأهوالها المتراكبة ، ومخاوفها المطبقة ، ويوم كان اقتحام المجهول ، ولقاء المخاطر ، ضرورة الفرد ، وضرورة الجماعة،لضمان العيش والأمن .

ومن يستطيع أن يزعم إن ضنَّ الحى بروحه ، وحرصه على صيانتها رذيلة إلا فى منطق هذا العرف الآبد ؟؟

ان الانسان اذا تغلب على وحى غريزته ، فاستهان بالمخاطر واستمرأ لذة المجازفة،كان خارجا من حدود غريزته وفطرته ، داخلا فى حدود مَطلب من مطالب الضرورة ، أو مطالب العواطف واندفاعاتها . ولهذا حدوده الخاصة . فاذا لم تلد هذه الحدود ، واذا لم تلد عواطف الشجاع واندفاعاتها ، حجة يستقيم بها الاقناع فى منطق الجبان ، كان ذلك حقا ، وحقا كله .

نعم انه ليس من الرشد فى عرف نفس اتسع مدى فهمها للحياة وشعورها بامتداد آفاقها ، أن تفقد فى سبيل صيانة النفس ، أعز اعلاقها .. ولكن هذا مطلب من مطالب طورخاص ، فى حياة الانسان ، ونضوج ذهنه.فذاك حيث عد الجبن رذيلة ، حتى بعد أن ادبرت الحياة البدائية أدبارها ، وأتسعت حدود الانسانية بمعنوياتها الحافلة النازلة من الانسان منزلة لحمه ودمه وأنفس أعلاقه . والشك فى أن الجبن رذيلة ، مايزال قائما فى النفوس ، وإلا لماذا جنح الناس الى توليد فضائل نصفية منه ، دعيت وزنا وتقديرا ، وتبصراً واعتدالا ؟ والى توليد رذائل نصفية من الشجاعة ، دعيت تهورا وتطرفا واندفاعا ؟ أليس لأن القرابة بينهما واضحة ؟

والحق إنا نرى القرابة بين معظم الفضائل ونقائضها وشيجة ، والتداخل واضحا .

وما نعتقد التفرد بهذه النظرة ، أو السبق اليها . فقد قاد الشعور بهذا التداخل ـ فيما نرجح ـ بعض الفلاسفة قديما وحديثا الى اعتبار الفضيلة ، وسطا بين رذيلتين،فالكرم عندهم وسط بين رذيلتين ، البخل والسرف ، والشجاعة وسط بين رذيلتين الجبن والتهور .

ولكن ثمة فضائل لا تقبل هذا التقسيم، فبقيت على الشذوذ وسط ذاتها. فالأمانة ، والصدق ، والعفة،وأمثالها ، لاتنزل فضيلة منها منزلة وسطا بين رذيلتين .

فالأمين يكون أمينا كلما بالغ فى أمانته ، والخائن يكون خائنا مهما قصر به مدى خيانته ، ويكون صادقا أو كاذبا ، ولا وسط ، وللمبالغة بعد ، حدودها وصيغها الفكرية واللغوية ..

فهل نلام على الشعور بأن العدالة المنطقية ، لم تعط الرذائل والفضائل حقها من التقدير والفهم الدقيق ؟..

هذه رذيلة الحقد ، لماذا عدت رذيلة ؟

أينقص بالنفس أو ينحدر بها ، أن تحقد على من أساء اليها ، أو اغتصب حقا من حقوقها ، حتى ينصرف بغيظها الانتقام والاسترداد ؟ أو ينصرف به العفو بعد الظفر ؟

وهذه فضيلة العفو القادر ! اليست ابلغ الانتقام وأدهاه ، والانتقام الذى يتضمن الشماتة البليغة والتقريع اللاذع ، للضعف المنكر بعد اعترافه بالهزيمة ؟. اليست عدول الكبرياء عن تشديد النكير على الجسد ، الى تشديد النكير على الروح ؟ اليست الانتقام الذى يَفْثَأُ غليان النفس ، ويطفىء اوارها ثم يستل فى دهاء سخيمة قلب الضد المندحر ، ويكسر سَورة الشرِّ فيه ؟؟..

فما بين معظم الفضائل والرذائل إذن من الفروق ، ما بين الظلم والعدل ، والحسد والغبطة وأمثالها .

هذه أضداد ونقائض ، وتلك قرابة ومجاورة ، وما على هذا الظن غبار ، مادامت النفس الانسانية ، وطبائعها الأصيلة ، المنبع الذى استمدت منه الفضائل والرذائل خصائصها وسماتها وانباضها .



والقناعة كانت فضيلة ـ ولاتزال فضيلة الصابر المحروم ـ لأنها رمز الاكتفاء القوى عن الناس،والتحكم فى مطالب النفس ، وحد طماحها ،ترفعا عن التدلى لالتماسها منهم .

ولكنها اليوم فضيلة خاملة ، توشك أن تنقلب رذيلة ، فى عرف الحياة الراهنة ، ومصطلحات طورها الحديث.فهى معدودة فى الفقير تسليما بالعجز عن ادراك الرغائب،وفى الغنى دلالة الاستكفاء .

ولو قلنا انها فى الغنى والفقير ، دليل سمو النفس وترفعها ، لم نقل حقا .

ولا يسعنا أن ننكر أن قناعة الفقير والضعيف والعاجز ، عزاء يلتمس لتخفيف وطأة الشعور بالحرمان ، عن النفس .

وهذا المتنبى يقول :

كل عفو أتى، بغير اقتدار   حجة لاجىء إليها اللئام

فالعفو عنده لا يكون إلا من قادر.وهذا مطابق للاصطلاح . فلماذا لا تكون القناعة فضيلة ـ إن كانت ـ إلا ممن تتوفر فيه المقدرة على تحقيق الأطماع ؟

والتواضع توكيد للذات ، وايمان عميق بها . ويخطىء من يظنه إنكارا للنفس ، واعترافا صادقا بضعفها . وهو لهذا لا يكون فى أروع صوره ، وأكثرها فتنة ، إلا إذا جاء دلالة على قوة ممتازة .

والكبرياء أنانية واضحة لا تعرف الدهاء والحذق ، فهى رذيلة ظاهرة .

ولو قابلنا بين الايثار والاثرة ألْفَينا الايثار اكثر جشعا ، واوضح طمعا .

فالايثار نظر حاذق الى ضمان فائدة الحب والاعجاب فى الحاضر ، وما يفيد بهما فى المستقبل .

والأثرة نظر ضيق الى ضمان فائدة فى الحاضر ، تقتصر على المادة . فهى عارية لا تتستر ، فتتيح بوضوحها الفرصة للمقاومة والفهم والحكم الدقيق .

فالمتكبر،والانانى الأثر ، أقصر نظرا الى مصلحتهما ، وتوسيع حدودها .

والاعتراف بالنقائص فضيلة دون شك ، ولكنها أيضا فضيلة ذات مغزى نفعى كالتواضع . فما يعترف انسان بنقيصة فيه ، إلا وهدفه أن يتصف بالكمال فى ناحية أخرى ، هى أكبر عنده وأغلى .

والعفة لم تكن رياضة عسيرة للنفس،وجهادا مستمرا لغرائزها،وقمع شهواتها الملحة . إنما كانت مطلبا من مطالب الحياة الاكتفائية الحريصة على أن تبقى لها ذخيرتها من النشاط والقوة ، حيث كانا سلاح الحياة ، وأداة صيانتها وإنما كانت دليل الزهد فى مناورة الجماعة ، لضرورة الحاجة الى حمايتها ، والاستقرار فيها .

فهى فى هذا القياس صفة لا أثر فيها للترفع الأدبى المختار عن انتهاك الحرمات .

على أنها قد تكون عجزا وفتور حيوية !

ومن يرى أن عفة الشيخ فى طور كلاله واسترخائه فضيلة . إنما هى فضيلة السن،وقانون الفتور ، وليست فضيلة القوة والصبر والمغالبة ، كما هى فى الرجل المشبوب القادر على تأمين مطالبه ..



والكذب يقل حيث يقل التزاحم على أسباب العيش ، فهو فى القرية ، أقل منه فى المدينة .

ففى القرية يعيش الناس على الزراعة مثلا ، وعلى العمل فيها . أو على أسباب محدودة للعيش ، فلا مجال للتنازع ، ولا للشعور بالحاجة الى الرياء والملق ، لوضوح استقلال الحياة واكتفائها . فما يكرم الانسان فيها طمعا فى ماله ، ولا يكذب عليه للاحتيال على الزلفى اليه ، ولكن يحب لسجايا الخير فيه ، أو يخشى جانبه لقوته البدنية مثلا . وهذا يدعو الى تحاشى سبيله اكثر مما يدعو الى تملقه،والكذب عليه .

لكن الكذب فى المدينة العامرة ، ضرورة اجتماعية واقتصادية ، تعين على الرواج ، وانتعاش حركة التبادل ، والاقناع . فلو ساد الصدق فيها ، أصيبت مجالات الحركة والنشاط ـ بركدة ، يتضاعف معها الشعور باعباء الحياة وهمومها .

والكذب دليل فقدان الثقة بنفع الصدق . وهو أكثر الرذائل نسلا ، وارشقها دخولا على النفوس ، واوسعها حذقا .

فالرياء ، والتصنع ، والغيبة ، والخداع ، والمكر ، والمداهنة ، والمداورة ، والمصانعة ، والنفاق ، والغدر ، والدهاء .. من مواليد الكذب ومركباته ..

وقد ضمنت له هذه الكثرة،الشيوع والسيطرة . وضيقت مجال الصدق حتى اعتبر خشونة ، وجهامة ، وقلة بصر بالحياة ، وسذاجة ..

* * *

والصبر والثبات ـ على أنهما من الصفات الفاضلة ـ كانا ضرورة من ضرورات الجهاد للعيش ، فما يلجأ الانسان اليهما الا وهما ضرورتان ، لارجاء فى درك مراده الا بهما .

وقد يكون معقولا ان يزهد الانسان فى بث فكرة او مبدأ،أو اقامة حقيقة ، متى أضنكه الجهد،وناء به فى هذه السبيل ..

لكن الانسان الساعى لقوت يومه ،أو اقامة مأواه . أو مطاردة فريسته أو دفع خطر داهم عن نفسه ، ما يجد بدا من الصبر والثبات ، لأن خيبته هنا لا تقطع

عليه لذة فكرية ، لا يستحيل العيش بفقدانها ، بل تقطع عليه أمل نشاطه ، وقوام حياته ، ومادة بقائها .

هذا فى الاطوار القديمة ...

وفى اطوار الارتقاء ، يكون الصبر والثبات ، ضرورة يمليها قانون التجارب وقانون الرغبة فى سداد السعى ، والحرص على الا تفقد النفس مطالبها . والا تألف الاندحار والخيبة ، فتفسد بهما عقيدتها فى قوتها ومضائها . أو عقائد الناس فيها .

والأمانة شأنها هذا الشأن أو ما يقاربه .

فقد كانت ـ على الارجح ـ دليل سيطرة القوى ، وندرة مثاله . ودليل الثقة باستغنائه عن الطمع فى أعراض يكثر مثالها فيما يحرز أو فيما يستطيع .

ولاشك أنها كانت مقصورة على من هيأت لهم قوتهم من امتداد النفوذ بين الجماعة سبيل السلطان عليها . فهى سمة القَوى الذى لا تحد حريته وشهواته، الا قيود قوته وحدودها .

وهى اليوم ضرورة لصيانة السمعة ، واستجلاب الثقة والفَرَق من اختراق حدود القوانين ، والاستهداف للمضرة والانهيار ، وجرح العزة والشرف .

ونحسب انه لو حَلت الاباحة والاطلاق محل التحريم ، والتقييد فى قوانين الحياة الوضعية ، لكانت الخيانة ، واستباحة الحقوق ، واحتجان الودائع ، أول زلزلة تصاب بها البشرية عامة ، الا من عصم الله . وعصم الايمان به ..

***

قسنا الفضائل والرذائل ـ أو بعضها على الاصح ـ بهذا المقياس الذى ما تقاس به الاشياء والمعانى الا مجردة عارية ، مما أضفت عليها خيالات القرون ، والافكار الذهبية والمدرسية .. ونعتقد انه لم يعد لنا معْدى عن الاعتراف بأن الفضائل فى مراميها الخفية،انانية مهذبة ، ميزان الربح والخسارة فيها قائم منصوب .

وجملة القول أن معظم الفضائل لا تنتسب الى أشرف عواطف الانسان أو غرائزه ؛ بل تنتسب الى انانيته ، وشعوره الخفى بالمصلحة .

ولم يكن حكمنا على الفضائل وتجريدها الا تقديرا دقيقا ، لأثرها الحقيقى فى الحياة ، وعلاقاتها بالنفوس .

وقد رأينا ان بعض الرذائل ، الصق بالحياة ، واقرب الى طبائع النفوس من الفضائل .. ويؤلمنا أن تكون المماراة فى هذا ضرباً من العبث .

ونحن لا ننكر أن الفضائل فى حقيقة معانيها ومطالبها جهاد صادق للسمو بالنفوس الى آفاق من الحرية والخير ، تخرج بها من حدودها المادية الجامدة ، وترتفع بها عن قوانينها الترابية ولاندعى أن الانسان قدير على ان يأتى بأشرف ما فيه من خارج نفسه وطبائعه . ولكنه مطالب بأن يحول ما فيه من نزعات الشر والانانية الى اسمى مطالب ادراكه العقلى والوجدانى ، كما تحول الرياضة العنيفة ، لحمه المترهل الى عضلات قوية ..

***

وقد حللنا بعض الرذائل التى نسميها معائب عقلية أو طبْعية (كالبخل . والجبن والكبرياء . والاثرة) تحليلا نخشى ان يؤخذ دليلا على عقيدتنا فى رجحانها على نقائضها . وليس لنا فى الحقيقة غرض من هذا التحليل ، والمقابلة الا الاشارة الى أن هذه الرذائل أو بعضها من سنن العقل والطبائع أو من فرائضها .

ولنا رأى نخالف به الاصطلاح الشائع فى الفضائل والرذائل خلاصته انا لا نرى صفة من هذه الصفات التى جرينا فى هذا الحديث على تسميتها فضائل ورذائل ، ما هو خليق بهذه التسمية .

وانما ندعوها محاسن ومعائب فردية يهبط بها العرف أو يعلو ، على وفاق نصيب المتصف بها من القوة والضعف ، أو على نصيبها من الشيوع والخمول ، واساسها الانانية والمصلحة .

اما الفضائل التى نراها خليقة بهذه التسمية ، فهى التى نزل بها القرآن ودعا اليها . تلك فضائل ، لا يكون للمتصف بها ، والمؤمن بقوانينها ، نظر الى مصلحة أو سمعة .. وان كان شيء من ذلك فالمثوبة عند الله ، والزلفى اليه .

فالكرم فيها احسان الى مستحقه ، ينزل منزلة الحق المفروض له ، وخروج من سلطان المادة وحدودها فى سبيل الله ..

والأمانة مبدأ يعامل الامين به الناس ، كأنه يعامل الله .

والصدق ميزان دقيق ، لا يستقر فيه الغش والتدليس ، ولا يستقر فيه الحقد والرياء .

والتواضع انكار للذات وقوتها ، فى سبيل ايمانها بقوة الله .

والعفة سمو بالنفس لا تشيل بميزانه خالجة من خوالج الشيطان والهوى . فاذا انحرفت بها نزوة عارضة من نزواتها ، لجأت الى التكفير والتوبة والاعتراف ، لتتطهر من اثمها .

وهكذا حتى تكون الفضيلة حياء من الله . تتجنب به مواطن حرماته فلا تأتيها ؛ ولو اتاها الناس جميعا .

***

وخير لنا ان نحجم عن تحليل بعض الرذائل (التى ندعوها رذائل روحية) واستجاباتها العصبية الظاهرة . فهى خليقة عندنا بان تدعى امراضا نفسية ، أو جسدية ، أو عقلية ، أو هى مزيج من ثلاثتها .

وانا لنجد بعض المصابين بادوائها اصح نظرا الى الفضيلة ، واصدق فى تقديرها ، والايمان العميق بها ، من المتشددين فيها لان ممارسة هذه الرذائل تنتهى بمن يمارسونها الى الوان من العناء ، والمشقة والمضض ، ترهقهم باعبائها . فهم اصدق نزوعا الى التخلص منها ، وان كان الاندحار نصيبهم ـ فى الاكثر ـ كلما نازعوا نفوسهم على الافلات من قيودها واغلالها ..

فنزوعهم الى الفضيلة ، وظمؤهم المحرق اليها ، اشبه بظمأ السجناء الى الحرية ، والقلق المضطرب الى الراحة والطمأنينة . والمقارنة بين شعور الانسان الطليق ، وشعور الانسان المكبوح ، بجمال الحرية وفتنتها ، تكشف لنا عن شعور المصابين بهذه الرذائل .

وهى عادة تمرض اصحابها باليأس من الخلاص ، فذاك حيث يتسمون بعدم المبالاة ، والاستهتار الظاهر ، وهما دلالة اليأس فى الشفاء ..

فلا غرو ان نرى فى بعض المصابين بهذه العاهات النفسية التى نسميها رذائل ؛ قبسا خاطفا من الشعور بهدى الضمير ، وصدق التأثر ، والاحساس بالوخز والمرارة ولانراه الا نادرا فى نفوس المتمسكين بالفضائل لا تمسك الايمان الصادق بها ، بل تمسك الخوف مما تجر اليه نقائضها واضدادها ، من فقدان امل ، أو مكانة .. وقد يكون تمسك من لا يحس من نفسه النزوع الى هذه النقائض والاضداد .

ولو أن رجلا ذابت فى عينه ونفسه مغريات الرذيلة ، وتزايلت فيه اسباب النزوع الى متعاتها السانحة ، فصدف عنها صدوف الواثق بعجزه او بعجزها عن اثارة رغبته واشتهائه ، لما كان خليقا بان تعد فضيلته فضيلة قوة وجهاد فى منطق العقل السليم .

فما تكون الفضيلة جديرة بهذه التسمية ، اذا كانت ايمانا ، حتى تكون غلبة وانتصارا وقوة وجهادا لاغراء الرذيلة ، وكبحا لميل النفس المسعورة ، وحنينها الملح اليها .

***

ان كثيرا من الفضائل لا يكون مطلبا خلقيا فى البلاد التى تتسع فيها اسباب الكسب،وتتنوع وسائله ، ويتكاثف فيها الاجتماع . فالناس فى مثل هذه البيئة يتسامحون فى طلابها ، لان ضرورات التكاثف وما تستلزمه ، من الاتصال والاشتباك واتساع العلائق ، تصرفهم عن التماس القوانين الادبية ، فيفهمون الحياة على حقيقتها الواقعة ، وينشغلون عن النظرة الشعرية المثالية اليها .

فمتى تكفلت الانظمة بحماية الحرمات الفردية ، وبحماية الحريات والحقوق ، وقام الفرد بواجبه القانونى فى صلاته المعينة الحدود بالناس ، استوى فى القمة ، الحليم والاحمق . والعفيف،والمستهتر . والكاذب والصادق . والشجاع والجبان . والانانى والايثارى.مادامت رذائل انسان لا تتناول غيره بالاذى والاساءة .

وليس لنا ان نطمع فى تحويل تيارات الحياة ، فالحياة لا تخرج على قوانينها ، ولا تتكيف على ما يطابق ميولنا . وانما الانسان يكيف حياته ومطالبه على وفاق ضروراتها .

فهل كان انحراف الناس بايمانهم بالفضائل ، الى هذا الهمود ضرورة ، اقتضاها سير الحياة العامة ، وقوانينها ؟؟..

اننا نعترف فى ألم بهذه الحقيقة .

يقول الاستاذ العقاد : (ليس بحى الضمير من لا يسمع صوت ضميره مرة ، على انه لو وُجد ذلك الرجل بين الناس ، لكان كمن يعاملهم بصك يتقيد به من جانبه ، ولكنهم هم من جانبهم لا يتقيدون به) .

ومعنى هذا ان النظرة العامة الى الفضائل اصبحت نظرة خيالية لا نظرة ايمان وتحتيم . وانها لم تعد سلاحا يضمن الحماية لمتقلده .

كمْ يلقى العقل ، وتلقى النفس الشاعرة،فى التسليم بهذه الحقيقة من مضض وألم ؟. أترانا نريد من الضعفاء والموتورين ، والعاجزين والفقراء ... ان يؤلفوا جيشا أعزل لحماية الفضائل مما جرّت اليه هذه النظرة العامة ؟؟..

ام تراه واجب الناشئين الحائرين ؟

ام واجب القوانين التى تعرف كيف تعاقب الرذائل ، ولا تعرف كيف تناصر الفضائل وتثيبها وتشجعها ؟؟..

ام انه واجب الاقوياء والقادرين ، وواجب قادة الامة وسراتها المتسلطين على مجارى حياتها ، والذين حذقوا فن القوة فيها ؟؟..

انما تنهض المبادىء والنزعات الطيبة ، بالتشجيع والمناصرة والاقبال .

فهل يلقى الخلق الفاضل بيننا التشجيع والمناصرة ؟؟..

كمْ يلقى الصادق . والصريح . والعادل . والأنوف . والصابر . والمستحى والأمين ، والرحيم من المشقات،ومن انزواء الناس عنهم ومن المقاومة الظاهرة والمستورة لخطواتهم ؟؟..

وكمْ يلقى الكاذب اللبق ، والماكر الختّال . والضارع الشرّه . والظالم القوى . والجرىء الملحف ، والطامع المتوقح ، والخؤون ، ومغلق الحس ، من الارتياح اليهم ، والاستجابة لفرائضهم ، والاعجاب بهم ، والرهبة منهم ؟؟

أفهذا لأن موازين المحاسن والمقابح قد اختلت قوانينها وتبدلت ؟

ام لأن تيارات القوة اختطت لسيرها مجرى اعوج غير مجراها الطبيعى ؟

ام لان الفضائل ادوات زينة ، وشارات تجمل ، كل شأنها ان تستكمل بها، وبشواهدها المسرودة ، معانى الترف والنعمة ومطالب الذوق الناعس ، فما تصلها بحياة الانسان ، صلته بسلاحه ، وعدته ، وافكاره ، وعقائده ؟؟

ام لأن النفوس عرفتها حلية زائفة ، وزخرفا براقا ، ووهما فى الفاظ فهى لاتنزل منها،ومن الالسنة ، الا منزلة الشعر الجميل ، والخيال البهيج،تنطلق به مناسباته السانحة فى مجالس الطرب والاسترخاء ، ثم لا ورود له بعد انقضاء دواعيه ، وزوال اسبابه ؟؟

أرأيتم كيف يتقلص نفوذ الفضائل فى هذا الزمن العجيب الذى اتضحت فيه سبل الحياة وحقائقها ، وقلت مساتير النفس وانكشفت مكنوناتها .؟

أرأيتم كيف تقلص فى عصور عجيبة قبله ، امتطت فيها الرذائل غوارب الفضائل تقودها،وتتخذ منها جُنة تُتقى بها المخاطر ، وتُدفع قالة السوء ، وتسخر الجموع وتُخمد الفورات ..؟

***

بين جزر هذا الحديث ومده ، رأيتم الفضائل التى سميتها محاسن ، سلعاً مزجاة يرتفع بها الميزان تارة ويهبط .

ورأيتموها تجارة يراد بها الغنم ، وفخاخا يصاد بها العاجز والغافل ، وسلاحا يغتال به الضعيف ، ولهوا تستمد منه اللذة .

ورأيتم فضائل الدين التى بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليتمم بها مكارم الاخلاق ـ تضحية لا ينظر من ورائها الى غرور الدنيا ، واعراضها الزائلة .. تضحية لا تضمن للمقدم عليها متعة ولا فائدة .. الا الزلفى الى الله ، ونِعْمَتْ تجارة لن تبور .. تلك محاسن،وهذه فضائل ..

تلك فخاخ يصاد بها حطام الدنيا،او تسحر أعين الناس .

وهذه وسائل ينال بها رضاءُ الله ، وتُبتغى المثوبة عنده ...

تلك محاسن نزل بنا ايماننا بها الى الحضيض ، فكانت شارة ضعفنا .

وهذه فضائل اقامت مبدأ ساميا فتح القلوب والنفوس قبل ان يَفْتتح المدن والممالك . فما يعجزها والله ان تنهض بهذه الامة المعروقة التى قعد بها ضعفها وقعدت بها محاسن ومعائب بنيها ..

فلنلتمسْها ، ولنمهّد المجال لظهورها.. فهى أمل النجاة ، وسبب النهوض وسبيل القوة والظفر .

ان كل فضيلة من فضائل القرآن تضرب المثل الاعلى الكامل للقوة وحريتها فآمنوا بها وأطلبوها .

وكل فضيلة من فضائلنا تضرب مثلا للضعف والتهافت والتمويه ، فاعرضوا عنها،وانبذوها .

وليكن الكريم الوهاب محسنا أنوفا يأبى أن يأخذ بما يعطى شيئا .

وليكن محسنا بصيرا .. يفرق بين الحسنة الواجبة ، والمحمدة الزائفة ..

وليكن الشجاع مجاهدا حرا ، يغضب للحق ، كما يغضب لنفسه . وليكن الصادق امينا ، يقول كلمته فى القانون ، قبل ان يقولها فى المجرم .

وليكن المتواضع صادقا لا طامعا .

والصابر مختارا لا مكرها ..

والايثارى زاهدا،لا تاجرا ..

***

وبعد فهذه حقيقة الفضائل كما تعرفها القوة ، لا كما يعرفها الاصطلاح ، وما على كل فاضل الا أن ينزع من فضائله نصيب نفسه الترابى فيها ، فاذا هى فضائل القرآن التى تصنع للافراد الصحائف الذهبية فى التاريخ .. والتى تبنى الامم ..

ولعل معترضا يقول : "أفلا يقتضى هذا التحول المطلوب ، أن تصاغ الحياة صياغة جديدة تنتزع من النفس الانسانية ، انانيتها ، وطبائعها ، وتبدل غرائزها وميولها الراسخة ؟

ونجيب بأن اصحاب هذه الفضائل ، كانوا من اوسع الناس انانية ، وابعدهم طمعا واعمقهم خيالا .. فما يضحى الفرد منهم بنفسه فى سبيل مبدئه الا وهو يعتقد ان الموت ختام الحياة الذى لا مفر من لقيانه ، وأن خلود هذا المبدأ وانتصاره إنما هو خلود نفسه فيه ..

وما يخرج من سلطان المادة ، الا وللدنيا عنده معنى من الجمال والحرية ـ ما تتمتع به النفس الا أن لقيته باكبر منه ، من داخل نفسها وذات سرائرها .

وما يكبح نفسه عما يشينه امامها أو أمام العيون الا والحرية عنده ألا يكون مغلوبا على أمره لهواه ..

وكتلك مظاهر الانانية فى ادل صورها على حب الذات والذهاب بها فى ابعد مذاهب الغلبة والسيطرة .

فهذه الفضائل ترمى الى توسيع مدى القوة والانانية وطبائع النفس،فتكبر فيها الحياة وتمتد حتى تكون مثلا أعلى ما تقنع النفس دونه بشيء،ويصغر كل ما فى الحياة مما دون هذا المثل ، حتى تكون خَطْرَة من خطرات النفس الانانى ، الأنانى اغلى من ذلك الكل الذى تنزل عنه راضية لمن كانوا دونها انانية وطمعا .

وخليق بنا ان نرى الامل فى مثل هذه الفضائل ضربا من الخيال ، لولا ان معارض الحياة اليوم غنية بالشواهد عليها،فى أمم لا تعرف أن وراء حدود الحياة الظاهرة،حياة ينتهى اليها الجهاد ، وتستقر فيها الموازين . فكيف بمن يرون الحياة الاولى سبيلهم الى الحياة الكاملة الصحيحة ، ومجال سباقهم الذى يعرضون فيه قواهم واعمالهم للفوز أو للخسران ؟

***

نحن بسبيل الحديث عن الفضائل،ولسنا بسبيل حصرها ، وما نظنها من الخفاء بحيث يكون حصرها ضرورة لازمة ..

وللفضائل فى رأينا جماع هو الحياء .. والرحمة .. والعدالة . وقوام هذا الجماع الحياء ..

فالحياء قوة النفس،وحرية العقل ، وميزان الضمير..

والرحمة عدالة النفس ، وجمالها ، وحسها .

والعدالة رحمة العقل وبصره وسلطانه .

وسنسهب فى تحليل الحياء الذى هو قوام الفضائل ، أو قوام جماعها اسهابا نحرص ألا يقودنا الى التماس العلاقة بين كل فضيلة من الفضائل وبينه حسبنا أن نجمل الاشارة الى هذه العلاقة فنقول إن كل صفة فاضلة مردها احدى ثلاث صفات من جماع الفضائل أولا ، ومردها الحياء أخيرا .

والصلة هنا ليست صلة الجزء بكله ، لكنها صلة الفكر المحس ، والوجدان الشاعر ، والضمير المبصر . ولقد أقول إن الرحمة جمال ، فيؤخذ السامع بغرابة هذا القول ، لأنه عرف الرحمة معنى ، أو شعورا وعرف الجمال صورة ، ولكنه متى عرف أن الصورة للجمال رمز لما وراءه من معانيه وخطراته ، وأن الالفاظ اشارات مجملة الى معان تنزل منزلة اللحم والدم ممن تجول المعانى وراء نفسه،أدرك أن جمال الرحمة هو الجمال فى جملته وحقيقة معناه .

المعروف أن الحياء صفة طبعية مظهرها الترفع الأدبي المتطرف عن الاستجابة لرغائب النفس ، اذا شعرت بأن فى هذه الاستجابة ما يشينها ، ولو كان مباحا يأتيه الناس .

والمعروف أيضا أنها دلالة الحس المرهف ، ووضوح الشعور بالنقص ، أو ضعف الجهاز العصبى.هذا أو ما يقرب منه فى الطب ..

***

لا توجد بين الفضائل فضيلة ، أو بين المزايا مزية ، تعرضت لما تعرض له الحياء من الامتحان بسوء النظرة وقصرها ، وبالتقدير المختل ، والوزن الجزاف .

اقصى ما يبلغه من التقدير ، أن يدعى شعورا بالنقص ، أو فرقا من الشماتة والتقصير ، فى الرجل .

وأن يعتبر ضابط العفة ، وصمام الأمن فى اخلاق المرأة ، ودوافعها الطبيعية. حتى بلغ سوء النظرة اليه أن يعتبره بعض الاساتذة المعدودين من المفكرين فى مصــــر كمالا للأنثى ، وعيبا للرجل .

وأول ما ينزل اليه ، أن يعد دليلا على ضعف الجهاز العصبى .

أما آخر ما ينزل اليه ، فأن يعتبر أول خطوات البله والعته ، وفتور الحيوية حتى يختلط بالجبن والخور ، وقصر الفكر ، وفقدان الثقة بالنفس ..

يتلقى بعضنا عن بعض هذه النظرة الفاشية فى مجال الحياء ، ونظرة اخرى مبهمة فى مجال النشأة الأولى .

هذا صغير يلتهم الطعام فى شره	ـ استح
يصرخ من شيء يؤلمه ـ أو يبكى	ـ استح
يتكشف عما يجب عندنا ستره	ـ استح
يقلب الأثاث أو يكسر شيئا	ـ استح
يربت على ظهر كلب	ـ استح

هذا فى البيت.

فى الزقاق :

يضرب الكلب	ـ استح

يضرب رفيقه	ـ استح
يغتصب شيئا منه	ـ استح

فى الكُتّاب فى المدرسة :

يبتسم	ـ استح
تفلت منه ضحكة أو حركة شاذة	ـ استح
يضاحك زميله الكبير أو الصغير	ـ استح
يقصرّ فى دروسه أو يغيظ الاستاذ	ـ استح
يكذب أو يسب	ـ استح

الصغير يريد بغريزته أن يشعر بوجوده ، وبأهميته ، ويحب الحركة لأنه ميال بفطرته الى الحرية ، والى الشعور بها .

يتناول كل شيء بعينه ، فيحب أن يتناوله بيده ، وأن يعرفه،وأن يختبره .. الكرسى . الصورة . الصحن . النار . القط .

يقلب الكرسى . يجذب الصورة . يكسر الصحن . يلمس النار . يجر ذيل القط . يخنقه .

هو معتاد ألا يشعر بنفسه إلا بهذه الحركات .

ومعتاد ألا يثير الاهتمام به ، فيمن حوله إلا بهذه الوسيلة .

اذا هدأ وسكن ، لم يلتفت اليه أحد . فلا يكون أكثر من قطعة أثاث تأخذ حيزها المحدود فى الغرفة .

اذا بكى أو صرخ ، أو تحرك ، أهتم به الناس .

ينشأ معه هذا الميل اذا كبر قليلا . فيقابل بزواجر القانون المختزل فى كلمة واحدة يندر ان تتغير (استح) فى البيت . فى الزقاق . فى الكُتّاب .

اذن اللعب . الحركة . البكاء . الضحك . التقصير فى الدروس عيب ينافى الحياء .

هذه عقدة عصبية .

عندما يشب ..

يرى سمر الكبار ، وحديثهم ، ومزاحهم ، وحريتهم ، فيميل الى المشاركة فيه بحذر وانكماش.(يجلس فى طرف المجلس) .. زجر ... نظرات قاسية .. استح

يغنى وحده،كما يسمع الكبار يفعلون ـ استح

اذن التشبه بالكبار حرية محرمة . تسع الكبار . ولا تسع الصغار ..

هذا هو الحياء ؟

انه غير عادل ، وغير جميل . لا منطق فيه .

هذه عقدة عصبية .

يظلمه الكبير . أخوه . أخته . استاذه . زميله .

يشتكى ـ يبكى ـ يعلن غيظه ـ يتحدث صادقا منفعلا ..

كذاب ـ اكبر منك ـ استح .

إذن الصغير عندما يقول الصدق ، يكون كاذباً !

وإذن الظلم من الكبير (القوى) لا ينافى الحياء .

يشعر بالمرارة ، يتعلم الحقد ، يتحسر على الحرية ، يكره حكم الكبار (العدالة) ويسأل نفسه لماذا لا يستحى الكبار عندما يضحكون ، ويغنون ، ويمرحون ، ولماذا لا يصدقونه ،

ولماذا يظلمونه ؟

لا جواب :

هناك انهم اكبر منه (أقوى)

إذن لا يجب أن يستحى إلا الصغير (الضعيف)

الحياء قانون ، ولكنه مفروض عليه وحده .

الحق للكبير دائما ، لأنه قوى . وليس للصغير .. لأنه ضعيف

الصغير لا حق له .

الحرية ـ الجمال ـ الغناء ـ الضحك ـ الحق ـ للكبار دائما لأنهم أقوياء .. عقدة عصبية .

كنا نقول إن الشعور بالمؤثرات ، والمفارقات ، فى حياة الانسان القديم ، لا يقتضى التسمية .. كذلك هو فى حياة الصغير .. معنى وشعور وإدراك .

يكبر ، وتكبر هذه العقد العصبية فى دمه ونفسه .. كما تكبر عقد عصبية اخرى لها خطورتها على اعصابه،وعلى مستقبله الفكرى والنفسى ، تنشأ عن الكبت وسوء التربية .. وانحطاط البيئة ، واختزان مؤثراتها ..

وقد تضيع هذه العقد من ذاكرته ، ولكنها تبقى فى واعيته الخفية ، قوة لا شعورية مستورة . ولكنها موجودة تعمل فى نفسه وأعصابه،عملها المخيف الهادىء ..

فى المدرسة ..

يتعلم أن الصدق والشجاعة . والكرم . والعفو . والعفة . والرحمة . والصبر والحلم . وطائفة كبرى من أمثال هذه السجايا .. فضائل واجبة ..

وتضرب له الأمثلة ، فى كتب الدين والأخلاق . والتاريخ . والإنشاء . والمطالعة ، على هذه الفضائل ، وعلى الخير والبر والتقوى ..

إن كان ذكيا رأى استاذه يكذب ، ورأى أمه تكذب على أبيه ، وأباه يكذب على أمه . ورأى أنه لا ينجو من العقاب المدرسى إلا بالكذب ..

ورأى الاستاذ يخاف ، ورآه بخيلا ، ورآه لا يرحم . ورآه ضيق الصدر . ورآه عفيفا فى الظاهر فقط ..

التلاميذ يعرفون اسرار اساتذتهم ويكتشفون هناتهم ونقائصهم أكثر مما يعرفها الرجال ..

وإن كان ساذجا انفعلت نفسه وأفكاره بما يتلقى .. فأخذ نفسه ببعض الفضائل أخذا ـ حتى يرى نفسه شيئا شاذا لا ينطبق على ما حوله ..

يتطلعان الى الحياة ، الأول فى ذكاء وخبث ، والثانى فى خجل ، وحيرة وتردد ، وانكسار .

وينشط كلاهما بالتدريج ، ولكن نشاطا حيوانيا خطرا .

الكبار يتمتعون بحريتهم ، وأفكارهم ، وألسنتهم الطليقة . الشاب يقلدهم .

تتكشف له الحياة عما يمارسون .. يراهم يقولون شيئا ، ويفعلون ضده . يستحون فى الظاهر ، ولا يستحون فى الباطن . يخافون القانون .. ولا يخافون ضمائرهم ، وقوانينهم الأدبية (الفضائل)

هذه عقدة عصبية .

يرى خطيبا يخطب ويتلعثم .

يقول فى نفسه ، هو لا يحسن الخطابة

يسمع الناس يقولون .. يستحى !

يدخل الى مجلس غاصٍّ فيرتعد . يعرق

يبتسم الناس.ويسألونه لماذا تستحى ؟

يسمعهم يقولون : فلان يستحى كالنساء .

يرى الذين لا يستحون يتصدرون المجالس . والذين يتوقحون ، يسيطرون عليها ولو سيطرة ظاهرة . ويضحك الناس لهم تشجيعا .

إذن فالحياء ضعف،كلما قل تأثيره فى النفس ، كان الانسان قويا ..

هذه عقدة عصبية خطرة .

***

فى كل ما سقناه من كلام على الحياء اضطراب واضح . فينبغى ان نستخلص حقيقة النظرة العامة اليه .

كان معنى الحياء فى تربية البيت الأولى ، وفى تربية الزقاق والمدرسة . انه قوة تحاول ان تجعل الانسان متسقا ، مؤدبا ، هادئا . فلا يلتهم الطعام ، ولا يصرخ من الألم ، ولا يسب نِدَّه أو يعابثه ، ولا يضرب الكلب لأنه ضعيف . ولا يغتصب شيئا ليس له ، ولا يذهب بحريته مذهبا يزعج غيره . ومعناه أن يكبح نفسه ، ويضبط قيادها.ويتعالى بها عن مواطن الريَّب والظِنّة .

ألا يقصر فى الدرس ألا يكذب ، أو يشير الاستاذ . وأن يؤمن بالفضائل .

معنى الحياء إذن تربية وقانون ..

وهو قانون معقول.ولكنه فقد العدالة ، ولم يوزعها بين الكبار والصغار ، فأصبح مرا ..

الانسان القديم كان يقارن ويستنتج

فالانسان الجديد أكثر مقارنة،وأدق استنتاجا .. لذلك تكون عقدة العصبية أشد خطورة .

***

عندما ينتهى البيت من مهمته ، والزقاق من مهمته،وانتهت المدرسة من مهمتها ،

صارت القيادة للتربية الاجتماعية .. للقدوة .. للمثلة .. للحوادث..للواقع المخيف .. للعقد العصبية ..

فى الواقع المخيف..كان الحياء صفة ، لا تشرف صاحبها ، وصفة يجب الاستغناء عنها لمن يريد ان يكون قويا ، يتمتع بمزايا حريته . ويتمتع باعجاب الناس وتقديرهم . وكان صفة تؤخر .. ولا تقدم ..

يتوقح الشاب لأن الناس يتوقحون .. ولأن الوقاحة فيما رأى وسمع واستنتج قوة . يأخذ فى هذا السبيل .. ينشأ لا يعرف الرحمة بالناس ، لأن الناس لا يعرفون الرحمة به . ولأنه لم يعرف الرحمة بنفسه .

وينشأ لا يعرف الجمال والاتساق والاعتدال والتوازن .. لأنه لم يكن حرا - وينشأ منكرا للعدالة،لأنه عرف ان الحق للقوة ، ولأنه كان فى كل ادواره مهضوما ..

ويكون أخيراً بلا ضمير ..

الفرد مرآة الامة .. تنعكس عليها الصور العامة لها

والامة مرآة الفرد فى اول نشأته .. وهى مثاله الذى ينشأ عليه .

اذا رأى شجاعة نشأ شجاعا

اذا رأى قوة نشأ قويا

اذا رأى فضيلة نشأ فاضلا

اذا رأى رحمة وصدقا وعدالة واتساقا ، نشأ رحيما صادقا عادلا متسقا .

لكنه اذا رأى فى هذه الامة .. غير ما قرأ فى المدرسة .. لم يكفه ان يكون كأخيه العامى المغلق ، انما ينقلب مجرما خطرا سيأتيكم الحديث عنه.

يرى الفضائل تجارة وخداعا ، وزواجر ليست لها قوة القوانين المسلحة ، فيتاجر، ويخدع ، ولا يخاف الا القانون ..

المجرم أيضا هكذا-لايخاف إلا القانون!

القوانين لا تربى الأمم . ولا تربى الاخلاق . ولا تبنى الحياة.

المدارس تعلم الاخلاق . ولكنها لا تصنع رجالا فضلاء.

العقوبات ترد الناس عن الرذائل والنقائص ظاهرا، ولكنها لا تردهم عنها باطنا. فهى لا تربى الاخلاق ، ولا تبنى الحياة ..

انما تربيها وتبنيها تربية البيت الأولى . وتربية الزقاق الأولى ، اذا استحالتا الى مشاعر وعقد عصبية..وانما تربيها المدرسة بالقدوة الصحيحة لا الفاسدة وتربيها الحياة الاجتماعية بصداها الفاضل

وتربية البيت مثله الصحيحة وحريته الفاضلة ، لا زواجره ..

وتربية الزقاق، ان يكون زقاقا فاضلا

وتربية المدرسة، ان تكون عملا وادراكا وممارسة ، لا آلية فكرية ، وقواعد، وترديدا ..

وتربية الحياة الاجتماعية ، ان تكون افعالا صالحة، تطابق الاقوال .

هذه كلمتنا فى الحياء .. كما يعرفه الناشىء تدريجا .

وهذه كلمتنا فى الحياء .. كما يفهمه الناس .. والاطباء ..

الناشىء معذور فى مجافاة الحياء .. لأنه الضعف ، ولأنه الشذوذ الذى عرفته عقده ..

والناس معذورون فى مجافاته لانهم لا يعرفون عنه الا ما عرفته عقدهم العصبية ، والا ما تعرفه حياتهم العامة .. وسبيلها العوجاء ..

والطب معذور لأنه يرى الحياء مظهر ضعف باطن او ظاهر فى الجسم ..

وهكذا تتضافر على هدم هذه الفضيلة التى قادت الانسان الأول ، فطرته اليها،فى معنى من معانيها وهو الرحمة .

وهكذا يفقد الميزان الذى هو جماع الفضائل الصحيحة ، أولى كفتيه ، فيصير الحياء ضعفا .. وهو القوة ..

وهكذا تفقد الفضائل قوامها .

فهل هذه حقيقة الحياء ؟

كلا ! فالحياء قوة .. وقوة حرة فى أروع المظاهر .. قوة فيها الرحمة التى هى الجمال .. وفيها العدالة التى هى الحق .

أنا انسان مهذب ذكى ، لبق ، واسع الادراك والخيال !

هل يكون نصيبى من الشهوات نصيب الرجل العارى من هذه الصفات؟ كلا !

أنا أحب فأجعل من هذا الحب دنيا تطيف بها ملايين المعانى والالوان والشهوات والاهواء ..

وهو يحب حبا جنسيا محدودا .

أنا اتمنى ألوف الامانى ، واحمل ألوف الاطماع ، وتجول فى رأسى غرائب الاحلام .

وهو يتمنى ان يأكل، وان ينتهج اضيق سبل الحياة (فكرا وجسدا) هذه سعادته لأنه لا يعرف كثيرا ولا يشعر ـ الضرورى عنده كل شىء ..

أنا اعرف كيف أؤثر ، وأخدع ، وأمثل ، وأصل الى أغراضى من السبل

الآمنة،ومن السبل الخفية التى لا تثير الشبهة .. واعرف كيف ابتسم لمن ابغضه بسمة الحب العميق ، والصدق الخالص ، لأضربه الضربة القاضية .. و هو لا يعرف من هذا شيئا، وان عرف ففى اضيق الحدود وابسطها ، واوضحها للعيان ..

جرائم المتعلم الحاذق اذن ، اروع من جرائم الجاهل الساذج .

كان الناس يتحاربون بالسيوف والأجساد ، صاروا يتحاربون بالغازات الخانقة تزهق الأرواح بلا عناء ويتحاربون بما يشبه السحر .

كانوا يتحاربون على سطح الأرض ، صاروا يتحاربون فى أعماق البحار، وفى اجواء الفضاء..

كانوا يفتتحون المدن بالقوة ، صاروا يفتتحونها، ويفتتحون النفوس ، والأفكار بتسميم عقائدها . (بالدعاية)

كانت الحرب حرب أجساد . صارت حرب اعصاب،وعقول ، وافكار .

ليس هذا هو الفارق بين الامس واليوم

انما هو الفارق بين انسان الامس،وانسان اليوم .

والناس فى الأمس لم يكونوا سواء .. وهم اليوم ليسوا سواء ..

أنا ذكى . أنت فطرى

أنا ذكى وعاقل . أنت ذكى فقط

أنا ذكى وعاقل وعالم . أنت ذكى وعاقل فقط .

وهكذا !

تقدم الذكاء ، والعقل والعلم .. هزم القوانين المسلحة وهزأ بها ، لأنه اقوى منها .

المحاكم غاصة بقضايا الجرائم . السجون غاصة بالسجناء . دوائر الشرطة تتصبب عرقا فى علاج الحوادث وتتبعها وضبطها .

هذه حرب طاحنة بين القوانين المسلحة،والجمعية البشرية ! ولكن ما حصادها ؟.. حصادها الضعيف الاقل ذكاء ، الاقل علما ..

لانرى فى السجون الاذكياء ، ولا العقـلاء ، ولا الفضـلاء .. ولا العلماء ولا الوجهاء ، ولا الاغنياء .

بل نرى الفقراء..والضعفـاء .. والاغبيـاء .. والجهـلاء ـ دائما.هذه نظـرة غريبة ـ أيها السادة ـ (قد تضحككم ـ وهذا يسرنى)

ولعلكم جميعا تودون ان تقولوا فى استنكار عنيف ، هذا طبيعى معقول،فما تمتلىء السجون بعلية الناس ، بل بسفلتهم .

نعم.هذا طبيعى ومعقول ! ولكنى لست مخطئا.

النسيان ليس عيبا ، فما يعيبكم ان تنسوا .

نسيتم ان المهذب ، الذكى ، اللبق ، واسع الادراك ، والخيال ، الذى مثلت له بنفسى .. هو مجرم أيضا ، بل هو المجرم الخطر .. لأنه اذكى ، واوسع ادراكا وخيالا،وابعد مطالب ومطامع ، وأحدّ شهوات..هو المجرم الخطر .. ولكنه قوى ..

أقوى من المجرم الذى يضرب رجلا بسكين لنزاع بسيط يقوم بينهما .. ومن المجرم الذى يسرق ليأكل ويعيش .

ومن المجرم الذى يسكر ويترنح فى الطريق على أعـين النـاس ، وعـين القانون ومن المجرم الذى يزنى ، ولا يحذق فن التستر ، فيقع !

المجرم الضعيف الفقير ، الاقل ذكاء وحذقا . يقتنصه القانـون بسهولـة او بصعوبة .

والمجرم الذكى القوى الذى يعرف كيف يضلل القانـون ، ولا يقتنصـه القانون ـ هذه هى الحقيقة عارية مجردة !

واظن ان الفكرة وضحت قليلا الآن ..

ان متاعب الانسانية بأعباء الرذائل والجريمة ، ليست هى المتاعب التـى يسببها المجرم الساذج الغبى الذى يقتنصه القانون بسهولة او بصعوبة . بل هى المتاعب التى يسببها المجرم الذكى المهذب اللبق ، واسع الادراك والخيـال ، الذى سميته أنا ..

والذى لا يقتنصه القانون الا نادرا جدا ، لأنه ، لايترك وراءه أثرا ...
هو عقدة العقد . وسبب متاعب الامة التى يكون بينها . وسبب انهيار الاخلاق فيها :

بل هو الذى لا تقوم للأخلاق قائمة الا ان اقتنص!هو الذى يتصدر المجالس ، ويقود الافكار ، ويسحر العيون،ويخدر النفوس .. وينفق المال سخيا . ويشترك فى الاندية والجمعيات ، ويساهم فى وضع القوانين ، ويكتب فى الصحف، وينظم الشعر،ويعظ ويتولى تربية الناشئين.ولايترك وراءه دائما الا آثار الجد والرصانة والسلوك الموزون ، والسمعة الطيبة ..

معنى هذا ان السجون ستمتلىء ، وان الناس كلهم الا السذج البلهاء مجرمون هكذا تقولون فى نفوسكم !

اما انا فاقول كلا . وستقولونها بعدى !

معنى هذا ان القوانين لا تربى الاخلاق ، ولا تبنى الامة .. ولا تقتنص المجرم الخطر .

انما يربيها ويبنيها ، ويقتنص مجرمها الخطر ، الحياء ، لأنه أقوى او لأنه القوة ..

الحياء الذى جهلناه،واضعنا أثره ، فحسبناه ضعفا نتنكر له ، وننتزعه انتزاعا من دماء أبنائنا وناشئتنا ، وهو قانون الفطرة الانسانية ، وقانون قوتها المطلقة ..

الحياء الذى هو القوة والرحمة والعدالة .

اعرفوه واصيخوا لندائه ، فهو الذى يبنى الحياة الفاضلة لأنه قانون ديننا .. وقانون انسانيتنا ..

هو موجود فى دمائنا .. هو العقدة العصبية القوية التى ما تهزمها العقد العصبية الا اذا تحولت الى مسلك عام .. تؤازره الحياة الظاهرة ، والحياة المستورة .

يرى المجرم الخطر الذى سميته (انا) تاجرا ساذجا ، او رجلا غبيا ، يمكن ان يفترسه ، ويختلس ماله على عين القانون . فيستحي.يرده ضميره الذى هو الحياء ..

يرى السرقة سهلة ميسورة من سبيل الربا الذى لا يعاقب عليه القانون اذا كان فى ظاهره اتفاقا تجاريا ، او قرضا احسانيا ، يسجله القانون نفسه .. فيستحي .

تنازعه نفسه ألا يصوم ألا يصلى وفى وسعه ان يفعل ، لأنه يعرف كيف يتستر ، ويخدع الناس بالصلاة امامهم ، وبالتحدث عن ايمانه . فيستحي .

يستحي ان يكون ايمانه بالناس ، اكثر من ايمانه بمعبوده،وبفرائض دينه .

يرى الضعيف الجائع لا يفرض له القانون على الناس شيئا،ولكن يفرض عليه ألا يسرق ، ألا تمتد يده الى اردية الناس.فيتألم ويستحي .

يرى انه يتمتع بمنصب مرموق، يكون فيه وسيلة لاستغلال الضعفاء،والعبث بحقوقهم..فيستحي ويتنحى .

يرى العامى الذى لا يعرف شيئا فى الحياة إلا سبيل طعامه.يراه انسانا قديما آبدا لا يحسن الكلام،ولا يحسن الفهم ولا يحذق الاساليب المهذبة ، فيقول هذا ليس ذنبه.ويستحي .

يرى الشاب الناشىء الضعيف ، يتعلق باسباب العيش فتخذ له ، ولا من يأخذ بيده.فيستحي ويرق .

يرى الغلام الهزيل،تكدح عليه امه الفانية،او يكدح عليه ابوه المضعوف، يراه يذهب هدرا ، فيتذكر ولده المتعلم المتنعم المترف،فيستحي ويعطف ..

يرى المرأة العجوز،والرجل الهرم ، أقعدهما كلال السن ، والحاجة، يراهما يدبان على الارض يتلمسان العون من ابنائها .. فيستحي

يرى الفتاة تدفعها الحاجة القاسية دفعا الى حيث تساوم على قوتها بعفافها فيتذكر بنته،او اخته ، فيستحى ..

يرى اليتيم الذى يعيش بين اخوانه الآدميين ، وكأنه ليس منهم ، فيستحى.

يرى المرأة الغريرة يستطيع ان يضع لها حبائل الشيطان فى حبائله يراها مأخوذة به ، وما بينها وبينه ، الا ان يقبل عليها بعينه ـ فيستحى . يرى هذه القروح الدامية فى وجه امته ، فيحسها قروحا دامية فى ضميره،وقروحا دامية فى نفسه ، وقروحا دامية فى عقله .. فيستحى ألا يكون رجلا يقوده ضميره ، وتقوده نفسه ، ويقوده عقله الى العمل والبر والاحسان ، صامتا ..

يرى ان امته لا تكون امة ، ما دام جسدها العام يسيل بالقروح الدامية فيستحى ألا يعمل شيئا .

ويراها نكرة بين الأمم يعصف بها الضعف والجهل ، وما هو شر من الضعف والجهل، فتثور به نفسه تطلب لها العلم والقوة والعلو والتمكين .. ويستحى

يرى ان ثروته ليست من صنع يده، بل من صنع الله الذى أعانه وجعله عضوا حيا فى جسم امته.ويراها من صنع هذه الامة،ومن صميم متاعب ابنائها وكدحهم ، ومن صميم حياتهم الجاهدة ، ويرى انه حجر فى هذا البنيان الذى لا يكون قائما الا بأن يشد بعضه بعضا فيستحى ان يقول « ثروتى . حقى » ويستحى ألا يفعل شيئا للامة التى كونته ، وكونت حقه .

يستحى ان يكون التراب اعدل وارحم منه .

يستحى ان يكون التراب رحيما يريح الفقير ، والجائع،ويضم العارى والمنكوب والضعيف، وعادلا يساوى بين عيال الله فقيرهم وغنيهم ، وضعيفهم وقويهم ألا يكون هو رحيما عادلا .

يستحى ان يرى المرأة،او يرى الرجل ، يغالب كلاهما الحاجة ، ويتعفف ، ويتحمل الصبر-فلا تبض له بقطرة حتى يقول،او حتى يسأل ، او حتى يشكو او حتى يصرخ ، او حتى يسقط اعياء .. يستحى ألا يسمع ضميره الا الاعوال و ألا يرى قلبه الا الدم .

هذا هو القانون الذى يقتنص المجرم الخطر ..ويجعله رجلا .. وفاضلا .

وهو القانون الذى يقفل السجون ، ويخفف عن الامة أعباءها ، ويطلق سراح الاغنياء،والجهلاء،والضعفاء،والفقراء (المجرمين المساكين الذين يقتنصهم القانون بسهولة) ..

هذا هو الحياء..الذى هو القوة .

افتحوا عليه بصائركم ، تفتحوها على القوة التى هى من قوة الله .. من قوة شريعته .. ومن قوة فطرته..

ومن قوة الانانية الفاضلة ، ومن قوة الضمير الذى هو النفس اللوامة .. التى اقسم بها الله فى كتابه !..

هذا هو الحياء الذى تنطوى فيه الرحمة ، وتنطوى فيه العدالة ..

هذه هى القوة التى لم تكن رسالة الدين الاسلامى الا محاولة ، حكيمة جادة لتربيتها فى نفوس المسلمين ..

ارادتها تربية،ولم تردها فرضا.

كانت فى حياة محمد ﷺ ، تضحية صادقة الى اخر حدود طاقة النفس الانسانية واحتمالها .

كانت حياء يدفع الناس ألا ينهزموا فى مواطن الجهاد .. امام الكثرة،وامام الموت المحقق .

كانت حياء لا يترك،الغنى يأكل ، حتى يشبع الضعيف ..

وكانت مثلا اعلى . تضربه قطعة من لحم ، كما تضربه قافلة ضخمة يجلبها عثمان للتجارة ، فينفقها للحياء ..

قطعة من لحم تطوف على بيوت الانصار والمهاجرين مطافها الطويل حتى تعود الى مهديها الأول.. وكانت مثلا تضربه شربة ماء ،يدفعها جريح يعالج سكرات الموت،يستحى أن يشرب وهو يسمع أنين أخيه الجريح فيقول حياؤه،ربما كان أحوج اليها منى،فتدور يدفعها جريح الى جريح،حتى تعود الى دافعها فاذا هو قد مات .. واذا هم قد ماتوا ..

هذا ما أراده القرآن.فكان .. وما يريد القرآن مستحيلا . انما يريد الممكن، وهذا هو الحياء الذى تنطوى فيه الرحمة بجمالها المطلق . وتنطوى فيه العدالة بحقها المطلق . لأنه القوة المطلقة .

ألقانون الذى تحول فى دمائنا الى زواجر لا شعورية ، والى مشاعر مغلغلة ، والى عقد عصبية سامية ، مات مفهومها،وبقيت قوة لكنها غامضة مبهمة.وقانونا لكنه اعمى،ومبدأ لكنه منكور ..!

تجرى به كلمة « استح » غامضة مبهمة،متحيرة، ضالة، لا تعرف سبيلها القويم تارة تصيبه وتارات تخطؤه . فى البيت ، فى الزقاق ، فى المدرسة ، وعلى لسان الاب والام ، والاخ والاخت ، والرفيق ، والاستاذ ، والرجل العابر !

وعلى لسان البنت الخفرة التى ما تحس عرفا ولا نكرا ، تقولها بدمها الطافر الى وجهها المحتقن ، حمرة قانية ، عندما تفاجأ طبيعتها ، بشىء تنكره طبيعتها ـ استح

الا ما احبها كلمة ، ولو كانت غريبة بيننا ، ولو كانت مجهولة ، ولو كانت مجفوة ، ولو كانت بلا مدلول .. او كان مدلولها حائرا ما يهتدى ..

هى بقية تراثنا ، وقوتنا ، الذى ما فقدناه فى دمائنا بعد ان فقدنا كل شىء .

ذخيرتنا فاعرفوها .. اعرفوها .. ولو لم تعملوا بها .. ورددوها ..

فالمعرفة اساس الايمان ..

والتكرار وسيلة الاقناع ..

اجعلوها فى البيت قوة تعرف سبيلها

وفى المدرسة معرفة لا زجرا ..

وفى الحياة مبدأ وعقيدة وسلاحا .. لا لعبة ..

ايها الخطيب الذى يضلل الضمائر،ويقول ما لا يعتقد استح

ايها المتحدث الذى يخدع اخاه ، بما يضمر ضده استح

ايها البائع الذى يروج سلعته ، بالزيف والتمويه استح

ايها الكاتب الذى يئد الحق والجمال والقوة ليظهر استح

ايها الشاعر الذى يصنع الكذب والباطل والملق فى شعره ، فيسجل به عارا على امته ـ استح

ايها الفاضل الذى يتاجر بفضيلته ، ليفيد بها مالا وسمعة وجاها ـ استح

ايها الكريم الذى يقيم المآدب،ينفق عليها المئات ، فى مآتم امته ـ استح

ايها المتعلم الذى يحتقر الامى والعامى . ليس هذا ذنبهما ـ فاستح

ايها المتكبر الذى يتنكر للضعف والفقر ، ويبصبص للقوة والنفوذ ـ استح

ايها الشاب القوى الذى يمتهن الشيوخ .. كان الانسان القديم يحترمهم ـ فاستح

ايها الطبيب الذى يعرف لغة المال والجاه . ولا يعرف لغة الحياء والضمير ـ استح

ايها الوطنى الكاذب الذى يتنكب سبل الجهاد ، ويروغ من التضحية الصادقة،فيجعلها فلسفة تتعلق بالممكن ، وغير الممكن ـ استح

ايها الوطنى الصادق،ان اعجزك الجهاد لانك ضعيف،اولأنك فقير،فجهادك ان تأخذ بيد الضعيف تواسيه ، وبيد الحائر تهديه ، وبيد المصاب تعزيه ، وبيد الجاهل تعرفه ما يجهل،وبيد العاثر تنهضه .. وجهادك ان تنفخ فى الضمائر حتى تحيا .. فاذا ابتليت بما يبتلى به المجاهد المضعوف ، من سخر يلذعك ، او غمزة تجرح كرامة نفسك ، فقلم فى رأسك ان هذا واجب الجميع ، لا واجبك وحدك ـ فاستح

ايها الرجل الذى لا يرى فى المرأة الا الجسد..هى الام التى تلد الحياء .. والرحمه .. والعدالة .. والام التى تلد الرجال،لو اصطنعت على ما يهيؤها لهذا ـ فاستح

أيها الأب الذى يكفيه من حبه لابنه أن يبنيه ليعيش لا ليحيا وان يبنيه لنفسه ولأسرته ، ولا يبنيه للخير ولأمته ـ استح

ايها الشاب الذى يتطرى ويذوب حتى يفقد رجولته ، اللغد نعتد الاناث استح

ايها الاديب الذى يظن ان ما وهبه الله من ادراك ويقظة ، حقه لا حق الامة عليه،ولا أمانتها عنده.الأدب نصيبك من الجهاد فاصدع به،وتصبب عرقاء للامة التى ما بلغت بك الرشد على ضعفها ، حتى تصببت عرقا ـ كن لنفسك قليلا .. ولها كثيرا .. واستح

ايها الرجل الذى يسمم عقائد الناشئين وافكارهم،بأفعاله ، واقواله ، هذا عماد قوة الامة فى مستقبلها ـ فاستح

ايها الوطنى،انت رجل لا ينسى قضية نفسه واسرته ، فلا تنس قضية امتك ووطنك . اشتغل بها فى نفسك،حتى تكون عقدة عصبية ، يرثها ابنك وبنتك ـ فاذا كانا صغيرين،ولقيا رجلا يضحك فى مآتم أمته،طفر الدم الى وجناتهما حمرة قانية ، وصرخا به ـ استح

ايها الوطنى: لا تحقد على الضعيف اذا كنت قويا . ولا تحقد على الضعيف اذا كنت ضعيفا . هو فى الاولى دونك ، وفى الثانية ندك .. انتما قوة فحذار ان تضيع بالانقسام..كان ابنك الصغير ،يضرب الكلب الصغير،فتقول له استح .

وكان يضرب نده ،فتقول له استح .. فاستح انت من ضعيف يكون دونك ، ومن ضعيف يكون مثلك ... واحقد ما استطعت على القـوى المتكبـر ، وعلى القوى الظالم .. احقد حتى تكون قويا فاضلا ، يأخذ حقه فيعدل،او يأخذ حقه فيرحم ...

ايها الوطنى .. المسلمون امناء بعض..بنتى وابنى امانة فى يدك وبنتك وابنك امانة فى يدى ، فافعل بامانتى ما تريد ان افعل بامانتك

وايها الوطنى الذى ليست له امانة .. لا تكن مجرما ..

ان كنت عقيما ففى الامة يتامى .. فيها بنات يفسدن ، وأولاد يفسدون .

يفسدهم الفقر والضعف ، وتصلحهم التربية والاحسان . التبنى سنة نبيك، فاجعله فرض حيائك ..

وان كنت اعزب، فما اقول لك تزوج، فانى اعرف ان الزواج امتحان عنيف للضمير وللرجولة وللطاقة امتحان قد لا تستطيع احتماله قوتك .. لان الناس جعلوه تجارة فما اقول لك تزوج ولكنى اقول لك استح .

ان كنت مريضا مرضا معديا .. فلا تتزوج ، ولا تكن مجرما .. واستح

ان كنت بحاجة الى خادم ، ولست بحاجة الى زوجة فاستح

ان كنت لا تعرف فى المرأة إلا لغة جسدها، ولغة شهوتك فأستح

ان كنت لا تستطيع ان تعول زوجتك، وتربى ولدك، وتؤدى به أمانه امتك وأمانه وطنك فاستح

ايها الاب . ايها الأخ . ايها الولى !

ان كنت لا تريد لفتاتك الا الفتى ولو لم يكن رجلا .. فاستح

ان كنت تبيعها لمن يدفع الثمن الذى تحدده فورا ، ويحقق الشرائط التى تفرضها .. ولو كان مريضا .. ولو كان طاعنا فى السن .. فاستح

اذا تقدم اليك الرجل .. ووقع فى نفسك انه الرجل، فادفعها اليه دفعا. لا تضع فى سبيله عراقيل المهر الضخم ، والمآدب الفخمة ، والنفقة المسرفة دع ما فى يده، يستعن به على حياته ، وحياة فتاتك واعنها ما استطعت .

المهر للتحليل، فلا تجعلوه تهويلا .. ان الله يكره الاسراف .. ويكره الغلو .. والشيطان هذه فخاخه .. يصطاد بها بناتنا وأبناءنا .. الزواج ضرورة الحياة .. وفريضة الدين .. فرائض الله ، تؤدى على التراب ، وينوب فيها شىء عن شىء ، ينوب فيها الصعيد عن الماء .. والايماء عن الاداء .. وتقوم فيها النية الطيبة مقام العمل الصالح ..

هذه فرائض الله لا غلو فيها ..

فلماذا نجعل الزواج تجارة .. تتم بها الغلبة علينا للشيطان ..

ايها الاب. ايها الاخ . ايها الولى. اذا كنت على شىء مما تتم به الغلبة للشيطان .. فاستغفر الله واستح ..

ايها الوطنى الذى تدمع عيناه للعظة لايدمع لها ضميره ـ استح

ايها الوطنى الذى يدمع للعظة ضميره ، ولا يفعل شيئا.. استح

ايها الوطنى الذى لا يفرق بين كلمة الحق يرسلها الضمير نارا،وكلمة الحق يرسلها اللسان لهوا استح

ايها الوطنى الذى يسمع بأذنه ، ويرى بعينه ، ولا يسمع بضميره ، ويرى بحيائه ـ استح

ايها الوطنى اذا هممت ان تؤذى ضعيفا خرق قانونك ، او قصر .. فاذكر من يعول .. واذكر ان الفقر يعلم الناس العثار .. استح!

ايتها المدرسة التى تدفع الى الحياة شبابا حائرا لا يعرف سبيله فى الحياة ـ استح

ايتها المدرسة التى تخرج متعلمين،لا مؤمنين ، وقوالين،لا فعالين ، وتخرج ذكاء ، ولا تخرج حياء .. وتخرج أجساداً ، ولا تخرج رجولة وقوة وطنية ـ استح

وايتها الامة التى لا تبنى مدرسة تصنع الرجال الاقوياء يقيمون مجد الوطن ـ استح

وأيها المتعلم المترفع عن غشيان معترك الحياة ، كما يغشاه الأمى والعامى، يعمل كلاهما بنفسه ، وبيده،وبجسمه ، العمل شرف وقوة ورجولة ـ فاستح

ما نظننا الآن وقد طال بنا الحديث ، بحاجة الى تحليل الرحمة والعدالة .. بعد تحليلنا الحياء الذى هو القوة.

الحياء والرحمة والعدالة ، تنطوى معانيها فى معانيها فتكون المعنى الاسمى ، كما تنطوى أجزاء الجمال فى أجزائه ، فتكون الجمال ..

ونجمل لكم القول فى معنى الحياء .. الذى هو القوة .. والذى هو قوام الفضائل ..

معنى الحياء فى الرجل أنه الرجل لا يقتنصه القانون ، ولا تقتنصه القوة ولكن يقتنصه ضميره ويغلبه حياؤه ..

٩

ومعناه فى المرأة أنها المرأة تهزم الشيطان ، وتطرد المجرم الخطر،وتجعل من جسدها حرما لا يتدنس وفيها حياة .. ما دامت لها طاقة !

فان كانت جاهلة ، او محتاجة ، او ضعيفة ، فذلك ذنب الأمة التى لا يكون فيها رجال ـ وان كانت طائشة،بها مس من طبيعة الشيطان فيها،فذلك ذنب الرجل الذى يراها جسدا .. فتنقلب به حيوانا بقرنين .. وبنفسها حيوان لا يستحى .

فليكن الحياء،شعار الضمائر فى هذه الامة ، وشعار حياتنا،وشعار الفضائل فيها ..

وليكن اساس تربية المنزل والزقاق ، والمدرسة والحياة ..

عودوا الآن الى كلمة الاستاذ العقاد (ليس بحى الضمير من لا يسمع صوت ضميره مرة) واجعلوها : ليس رجلا ذا ضمير ، من لا يسمع صوت حيائه دائما .

قال محمد ﷺ : الحياء والايمان مقرونان فاذا سلب أحدهما تبعه الآخر .

وقال : لكل دين خلق ، وخلق الاسلام الحياء . وقال : ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، اذا لم تستح فاصنع ما شئت .

خاطبنا الضمائر والنفوس هذا الخطاب الشعرى الذى نرجو ان يكون مؤثرا وان يكون تفصيلا لنظرتنا الى الحياء،وعلينا الآن ان نسأل كيف نستفيد من هذه القوة المذخورة فى دمائنا،وكيف نجعلها أساساً تبنى عليه تربيتنا الفاضلة .

وهذا فى الواقع لبّ الحديث وخلاصته ، والنقطة التى يجب ان تبقى مدارا لجهاد اقلام قوية من ادبائنا وشعرائنا ، ومثارا للتوليد،والقول،والتفكير الدائم .

وقد طال القول ، وهذا ما يدفعنا الى اقتضابه حتى تحين فرصة لدراسات خاصة ، تعطى حكم الاستقلال والتفرغ .

لا تحيا أمة الا بالتربية الصالحة ، .. وما نراه من الفروق بين الأمم الناهضة انما مرده تفاوت اساليبها فى التربية .

وقد تماثل أمة أمة فى قوتها الظاهرة ، ولكن الغلبة تكون دائما لأقواها خلقا .

وتفوق السياسة الانجليزية ليس مرده القوة الحربية ، ولا امتياز الذكاء والادراك ، ولا قوة النفوذ ، وامتداد السلطة وارتفاع ميزان الثروة ، لان هذه النتائج ضمنتها قوة الخلق فى الفرد الانجليزى .

ولقد كانت فرنسا،وماتزال أقوى ذهنية،وأحد شعورا،ولكن اتجاه المزاج الإفرنسى ، كنتيجة لاسلوب التربية الغالب فى فرنسا جعل الفرنسى ، دون الانجليزى ، فى متانة الخلق ، وصدق الاتجاه ، وقوة العزيمة،وضبط النفس .

والاجماع عام على ان أية نهضة لاتقوم على قوة خلقية فى امة ، انما تكون نهضة مقضيا عليها بالانهيار والتحير ..

واتجاه الأمم فى اطلاق الحرية لتربية الطفل ، واتخاذها سياسة لاتنزل المنزلة الثانية من سياسة الشعب العامة ، دليل على صحة هذا القول ..

فالطفل فى البلاد الناهضة حقا ، يعتبر رجلا صغيرا بين أهله ، يعامل معاملة الرجل ، ويعطى مميزاته ، ومطالبه ، وهو عضو فى الأسرة ،له محله الخاص، وعلى المائدة موضعه الخاص،وحريته التامة.لايكتم عنه شيء،ولايلزم باتباع أساليب وآداب لايتبعها الكبار أنفسهم .. ولايقسر على اتباع ، مايعرف أن السير عليه فى مستقبله غير ممكن.فاذا قصد الاهل دور السينما ، والمتنزهات لم يحرموه هذا الحق . واذا كانوا يمارسون الوانا من اللهو البرىء ، لم يحجروا عليه ممارستها.واذا كانوا يلقنونه الرحمة والعدالة والاتساق والادب ، كانوا فى كل تصرفاتهم أمامه رحماء عادلين ، متسقين مؤدبين . واذا اطلقوا لأنفسهم عنان الحرية فى شيء لم يمنعوه ان يأتيه .

فالطفل جزء من المجتمع الصغير فى بيته ، ومن المجتمع الكبير فى مدرسته ، فهو لايشعر انه صغير ، أو ضعيف ، أو مقيد الحرية أو مهضوم .

وخطؤه فرصة تنتهز للتفاهم معه ، والنصيحة له ، وارشاده ، لا لزجره وازدرائه وكبته . والتربية فى المدارس فى أكثر مراحلها،توجيه وليست قيادة وتحتيا . والمدارس تفرح بالطفل الشاذ ، لأنها تعرف انه سيكون رجلا من نمط خاص، فهى تعنى بتهذيب هذا الشذوذ فيه وتوجيهه،ولا،تقاومه،أو تقسره .

واذا كان وجود الكبير بين الصغار تقييدا لهم،وحجرا على حريتهم،فإن وجود الطفل بين أهله،حرى بأن يكون تقييدا لهم،يحملهم على ان يسلكوا أحسن السلوك وأدقه . مراعاة لما يجب ان تقع عليه عينه من صور الكمال والجمال .

فلو قلنا للطفل عندما يضرب كلبا ، استح . وشرحنا له أن الكلب ضعيف لايستطيع الشكوى ، ولا الدفاع عن نفسه ، وانه وديع لا يؤذى ، وتظاهرنا بالحزن والرثاء على هذا الكلب،وأوجبنا على الطفل أن يقدم له ترضية من طعام ، واتجهنا هذا الاتجاه فى كل ما يشبه هذه الحادثة،لكانت عقدة الطفل العصبية ، عقدة نبيلة ، تجعله يشعر بالقوة وبقانون حريتها .

نحن نخطىء كثيرا عندما نظن ان الاطفال فى سنى حياتهم الأولى لايعرفون،ولا يدركون .

إنى اعتقد ان أحسن مبادىء التربية ، وأسوأها ، لاترسخ فى دم الطفل ووجدانه وعقله الباطن ، بقدر ما ترسخ فى العشرة الأولى من تاريخ نشأته ..

واذا كنا نعرف خطر تسميم عقل الشاب ، بالمعلومات والمبادىء الفاسدة فى الخامسة عشرة ، أو العشرين من عمره ، فيجب ان نكون اكثر تقديرا ، لما يسمم دمه ، ويكون عقده العصبية فى طور مراهقته الفكرية .

والملوك والزعماء ، عندما يريدون تنشئة ابنائهم على أخلاق وميول خاصة ، يطلقون لهم حرياتهم ، ويحيطونهم بما يطبع نفوسهم وافكارهم على مايراد اعدادهم له من حياة وتقاليد .

فالذى يراد له ان يكون كريما يجعلون له بيتا مفتوحا،وحاشية تأتمر بأمره وخيولا مطهمة .. وقصادا ، ومآدب ـ ويكون هو فى أثناء هذه الحياة جاهلا معانيها كل الجهل ، فى الظاهر ، ولكن دمه ينطبع عليها بالايحاء والممارسة .

والذين يريدون الخيول على ان تحذق أساليب خاصة من السير والحركة والنشاط الظاهر والفراهة ، يأخذونها بأنواع من التدريب والتمرين ، ويبذلون فى هذا من الجهد ، ودوام الملاحظة والعناية كثيرا . ويرسخون فيها كلمات ، ونداءات خاصة ، واشارات ، تتأثر بها مع طول التجربة ، وهذا يكون عندهم ضروريا لضمان هذا المطلب .

ومن الغريب حقا ان يهمل الطفل ، ويكبت ، ويعامل كما يعامل حيوان مغلق لا يحس ولايدرك . فاذا كانت بعض الحيوانات ، تستفزها كلمات و اشارات ، عودت على الاستجابة لها ، فكيف يهمل الطفل الذى يراد له ان يكون رجلا مؤدبا مهذبا قويا حرا ، يضطلع بمسؤوليات بنيه ، ووطنه فى المستقبل ؟

اننا نرى صلات الامهات والآباء فى الأمم الراقية ، بابنائهم ، صلات ودية عميقة،تشبه ان تكون صداقة وارتباطا فى معظم أدوار النشأة ، ونراها عندنا صلات تشملها القسوة والجمود والاهمال والفوضى ، على اعتبار انها تربية.وحدود تقتضيها فوارق السن والادراك ، والمقام .

فاذا ترك الطفل لنفسه،شعر بغربته فى هذا المحيط ، وتعلق بالزقاق او بالخدم ، فنشأ نشأة شاذة مضطربة ، تكون شر اساس لحياته المدرسية ، فاذا كانت هذه مضطربة شاذة ، خرج الى معترك الحياة ، حيوانا له مظهر الانسان ..

حدثنى صديق كان يتلقى الطيران على يد استاذ انجليزى . قال كان الانجليزى يشرح كيفية استعمال البراشوت (مظلة النجاة) قائلا :

عندما تفشل فى ضبط قيادة طيارتك وهى هابطة ، تلقى بنفسك فى الهواء ، وتحل فى اتزان ، أربطة المظلة . فلا تلبث ان تمتلىء بالهواء وتقلك،فبادرته سائلا .. واذا فشلت المظلة . فأخذ الانجليزى بغرابة هذا السؤال،وقال بلا روية ، وبلهجة عنيفة .. يستحيل ان تفشل .. انها مصنوعة فى انجلترا،فهذه عقدة عصبية لهذا الانجليزى، تعطينا فكرة واضحة عن تشبع نفسه،ودمه، بعظمة

مصنوعات انجلترا،ودقتها،واستحالة احتمال فشلها،فى آداء مهماتها.ولو كانت فكرة واضحة..لوسعه أن يتصور أن فى الدنيا مظلات غير انجليزية يحتمل ان تفشل..اذا كان الفشل لمظلات انجلترا مستحيلا !..

هى نادرة يصح ان تكون دليلا على جمود طبع الانجليزى، وضيق مدى فكره ، ولكنها استجابة خاطفة ، تشير الى احكام العقد العصبية الاولى ايضا ..

لايستحيل ايها السادة ان يعرف الطفل من حياته المنزلية ، قوانين العدالة ، والرجولة،والحرية،والوطنية ، والجمال ، والعواطف ، والجندية ، والموسيقى ، والرياضة والاتساق والكرم ، والشجاعة ، والرحمة .. متى عرفنا كيف نستغل قوة الحياء فيه هذه القوة التى نفسد بها حريته ،ونبلبل اتجاهاته ، ونكبت بها نزعاته المتطلعة،ونقضى على نشاطه المأمول ، بدل ان نجعلها قانون القوة فيه ، وقانون الحس والشعور والغيرة ، وتربية الضمير ..

مع ان الانجليز اليوم يضربون أعلى المثل فى نظام تربيتهم المدرسية ، فانهم قليلو الثقة بهذه المدارس ، فهم لايدفعون اليها الطفل الا بعد ان يطبعوا نفسه بطابع الرجولة ، ووثاقة الخلق ، ويقيموا عليه من ضميره وتقاليده الراسخة فى دمه حارسا يقظا قويا ..

وقد اصبح كل باحث فى التربية تقريبا ، يعتقد انه لاشىء يعادل فى الاهمية السنين الأولى من حياة الطفل ، فهى التى تكون مركز القيادة الوجدانية والجسدية والفكرية فيه.ويعتقد بعض علماء النفس ، ان الطفل فى نهاية سنته الثانية ، يكون قد اتم شكل قالبه المستقبل . فلو توسعنا قليلا بهذه النظرية الى حد الرابعة ، فماهى طائلة العقاب المعنوى التى تتعرض لها أسرة لاتعرف الا ان الطفل فى الرابعة اشبه بحيوان لايعى ماحوله ؟ ..

وكم تلتقط هذه الصور الحساسة مما يدور حولها ؟ وكم تفعل سيطرة الآباء والامهات،فى القضاء على القوة الطبيعية فى الطفل ، بهذه الحيرة العمياء لاتعرف سبيلها .

اذا كان الاطباء يعدون من المسائل الكبيرة الخطر فى حياة الطفل الجسدية ، مسائل التهوية ، والبكاء ، والغذاء والنوم ،والملابس،والامراض المعدية ، فاننا نرى انها تقل خطرا عن مسائل صحة العقل ، والعقد العصبية ، والعادات الوجدانية .

اننا نرى أمماً لم يمنعها فقدان النظام الصحى من تكوين حضارتها ، ولكننا لا نرى امة تفقد التربية النفسية والفكرية ، بمقديرة على ان تقيم حضارة تسلكها فى عداد الاحياء الحقيقيين . ومن سوء الحظ ان مدارسنا ـ على ندرتها ـ لاتزال تتبع الطرق القائمة على الكبت والقمع،وسوء استغلال قوى الطلبة وتبديدها،اما بسوء اساليب الدراسة ، او بدراسة مطولات تثقل الذاكرة ، وتشوش الفكر،او بتدريس مناهج اجنبية ، لم تُبن على طاقة الطالب عندنا ، ولم ينظر فيها الى المقومات الذهنية والنفسية التى يجب ان تكون شخصيتنا الخاصة كأمة مستقلة .

ان العيوب التى تتخبط فيها مدارسنا يرجع معظمها الى جهل اساتذتها علم التربية ، والى عدم وجود قيادة خبيرة تبنى مطالب التربية وفروضها على دراسة دقيقة عامة لطاقة الفكر والذكاء،ومقوماتنا الذهنية ، والنفسية ، وان كانت الحركة التعليمية الاخيرة تعد ثورة بالنسبة الى الماضى .

ولو استقصينا هذه العيوب لما رأينا ازاءها حسنة واحدة .

وحسبنا دليلا على هذا ، ان الدراسة عندنا لاتزال قائمة على حشو الذهن بالمعلومات والقواعد ، وعلى ارهاق طاقة الطالب ، وكبت نزعاته النفسية والوجدانية ..

وها نحن نرى آثار هذه العيوب ، فى انمحاء آثار الشخصية من جميع من تخرجهم المدارس وفى كلال اذهانهم واعصابهم ، وفتور حيويتهم الفكرية . فلا نكاد نجد اثرا لنشاط الفتوة فى نفوس ابنائنا ..

فالغلام عندنا مطبوع بطابع الكهل ، والشاب مطبوع بطابع الشيخ الهرم .

إننا لنرى آثار القمع ظاهرة فيا يلوح على ابنائنا من اعـراض الحكمـة والفلسفة الخامدة .. فالشاب قصير النظر ، فاتر الطموح ، لايتطلع الى غير ان ينال عيشه،ويتجنب ميادين النشاط والحرية والاستقلال .

ان مسألة اختيار الاستاذ والمربى ، لم تعد من المسائل الثانوية بالنسبة للتربية العامة . واذا كانت طبيعة حياتنا قد افقدتنا الأب والأم الرشيدين ، فلا أقل من أن تعوضنا التربية المدرسية اساتذة يقودوننا بحكمة وخبرة ، ليعدلوا ما فينا من اعوجاج ..

يقول الاستاذ الالمانى ليبنتز"سلمنى قياد التربية ، وأنا ضمين لك أن أغير وجه اوربا قبل قرن واحد من الزمن".

فمن الخطأ ان تعطى مقادة التربية لأناس لا هم لهم الا تلاوة المقررات المطولة،والمقررات الجامدة ، ليعيدها الطالب حفظا وتسميعا ..

ان سياسة التربية العامة ، يجب ان تنزل المنزلة الاولى ، من حياة الامة التى يراد لها التقدم ، وتبتغى لها الحياة .

عندما ارادت انجلترا تكوين فكرة صحيحة،عن المبادىء المثلى للتعليم والتربية،اسندت هذا العمل،الى اكفأ رجالها ، من ساسـة ، وادبـاء ، ونقـاد، وفلاسفة ، وعلماء،ورياضيين ، وفنانين ، وصناع وكانت النتيجة ان يقدم لها القرار فى عشرين مجلدا ضخما ..

ففى اى عدد من الاوراق يوضع القرار الذى تستند عليه التربية المدرسية عندنا ؟ لهذه الامة ؟ وفى يد اية جماعة توضع دفة التربية العامة لهذه الامة ؟..

أليس من العار ان تكون مدارسنا ، معامل تفريخ ، كل غايتها ان تدفع عددا من حملـة الشهـادات ، لا يعرفـون فنـا تجريبيـا ، ولا علما عمليـا ، ولا صناعات يدوية ، تفتح فى الحياة ميادين نشـاط جديـدة ، غـير ميـدان « الوظيفة ، والمكتب،والديوان » .

أليس من العار ان ينال الكتاب المدرسى من عناية القائمين بقيادة التربية ، ما لا ينال عشره الطالب ، وذكاؤه ، واعصابه،وطاقته،وسلوكه،ونفسياته واتجاهاته الطبيعية،وحريته .. ومستقبله ؟ ..

أليس من الخطأ القاتل ألا يعبأ قادة التربية بتغيير القوالب والاوضاع بعد ان تغير الزمن ، وتغيرت مطالبه،وبعد ان كشفت الفنون،والعلوم،والبحوث، والتجاريب الدقيقة عن نفس الناشيء . وعينت الاتجاهات التعليمية التى تجعله رجلا وانسانا وعظيما ، وفعالا،وقوة ؟..

مما يدعو الى الأسف حقا ان الباحث فى الفضائل والرذائل لا يتاح له الوصول الى حقيقة قيمتها فى الواقع الا متى طالع الناس بهذه الصور الشاحبة المرعبة ، كائما همه ان يعرض شر ما فى الحياة .

على ان غاية المفكر والاديب ، يجب ان تكون دعوة الى اكتشاف مسرات الحياة ومحاسنها،لان النظرة السلبية الى الحياة دليل الفتور وضيق مدى الخيال .

فاذا آنس الناس منا هذا التجهم للفضائل ، فليعلموا انه ليس تجهم الكفران والاباحة والاطلاق ، انما هو تجهم الشعور بالخيبة والاخفاق ، وتجهم من لا يرى بدا من الاعتراف باختلال المعتقدات التى تقود حياة الامة والناشئين فى طريق غير طريق الحياة المثلى .

ان كثيرا من مفكرى الغرب وقادة الفكر فيه ، يفرقون من اختلال التوازن بين قوانين الاخلاق والفضائل التى كانت خلاصة جهاد العقول ، فى تاريخ الانسانية الطويل ، وبين سير الحياة العلم . ويهولهم هذا التنافر الظاهر بينهما ، ويدركون ان التربية المدرسية السامية تذهب ضحيتّه ، ويعرفون ان النظرة العامة الى الفضائل لم يبق لها من القوة والتماسك ، ما يدع مجالا للأمل فى مستقبلها .

ولكنهم لا يعرفون طريقة لعلاج هذه الحالة الا طريقة الوعظ ، والإنحاء باللوم والتقريع ، على من يكشفون الستار عن حقائق هذه الفضائل التى تتعبد بها الافكار هذا التعبد الشعرى الفاتر .

ونعتقد ان علماء التربية البدنية وقادتها ، افادوا الفضائل أضعاف ما افادها هؤلاء الخطباء الذين ينتهزون الفرص لالقاء الكلمات الغامضة المطلقة الشعرية عن احلامهم بالفضيلة . والتشريح والتشخيص ، كانا دعوة موفقة الى بث روح العفة ، والاعتدال فى الناس ، ولما يكتب النجاح للمواعظ والتعاليم والزواجر .

هناك طريقة لتربية القوة ، وتربية الفضائل ظهر نجاحها للعيون ، هى طريقة الصراحة والتجريد ، والتربية القائمة على العمل والممارسة ، لا على العظة واثقال الذاكرة وطحينها . واذا صعب علينا ان نخضع الناس لسلطان ألفاظ لم يبق لمدلولاتها صدى فى حياتهم العامة ، فان الصراحة والاعتراف هما سبيل اعداد النفوس للاصغاء الى اصوات الضمير والمصلحة ..

لم يعد من مصلحة الحياة ان تكون النظرة اليها نظرة ارتياب وقلق ومن الحماقة ان ينزل النواح منزلة الاصلاح والجد والقوة .

فمن لا يرى ان التسليم بواقع الحياة ، والتقدم لمجابهة قوانينها الصارمة ، وحقائقها العارية ، امر لا بد منه لناشئة بلاد تراد لها الحياة ؟..

فالتكتم والتستر على خلل بعض القواعد السائدة ، والحقائق والتقاليد الموروثة وضعفها ، جريمة لا يغتفرها العقل الطامع ، لأنها تجر الى الفشل والحيرة والفناء .

وليس لنا ان نفرق من مواجهة الحقائق ، فمن المتوقع ان يكون مستقبل كثير من الحقائق الراسخة ، والتقاليد المتحجرة والاوضاع المتصلبة ، قاضيا عليها بالزوال .

ولا خسران فى هذا للحياة،ولا بوار لخير ما فيها،فهذه نواميسها . ان على من يريد البقاء والنجاح ان يتذرع بالقوة ، وان ينظر الى الحياة بعينين يقظتين ، لا تراودهما الاحلام الفاتنة .

وقد كشف الطب عن امراض مغلغلة مستعصية ، فى بعض الامم ، والاسر، والجماعات،والافراد،كان التستر سبب استفحالها .

فاذا وقفت التربية المدرسية ووقفت قيادة الفكر عندنا،موقف التستر والمداورة والجبن ، فى مواجهة الحقائق وواقع الحياة ، انتهت بنا امراضنا النفسية والفكرية الى اضمحلال محقق .

هذه لمحة سريعة نقيم بها المثال والقياس فقط . ومجال الحديث فيها ، بعد ، ما يزال واسعا جدا .

عرفنا مما تقدم ، الفضائل وجماعها ، وقوامها فما عمادها الذى ينهض بأعباء رسالتها ، والذى يكون سلاحها وحامل لوائها ؟ .

انه الرجولة،ولذلك اخترنا ان يكون عنوان هذا الحديث«الرجولة عماد الخلق الفاضل»ولذلك سيكون خاتمة حديثنا ، تحليلنا للرجولة .

ان الرجولة كالجمال قانونها فيها . ولذلك كانت اساس نشأة الفضائل فى الاطوار الاولى التى تحدثنا اليكم عنها طويلا .

ونحن لم نر فيما اسلفناه من دراسة وتحليل وفرض (بعد الغرائز الاصيلة، وقوانين ضروراتها) اساسا لنشأة الفضائل،او نشأة القوانين الادبية التى نسميها فضائل الا الرجولة التى كانت رمز القوة . والشعور بمحاسنها والميل الى اتباعها وتقليدها .

فالقوة الجسدية بعد ان ادت رسالتها دفاعا ومقاومة واكتسابا وتمهيدا وبناءاً وتقريرا للذات ـ نزعت او انقادت انقيادا طبعياً الى اقامة حدود ساذجة لقوانين ادبية،كانت اشبه بفرائض اختيارية تشد من ازر الجماعة ، وتجعل مدى القوة ، اوسع،وارحب،غير شاعرة بأنها فضائل تتصل بدخائل النفس لوضوح اتصالها باسباب حياتها الظاهرة .

لا نريد بهذا التمهيد أن نعتبر الرجولة فضيلة،أو قواما لها ، لأننا قد انتهينا الى ان الحياء قوام الفضيلة ، والى ان الرجولة عمادها ، الناهض برسالتها ، لكنا نريد امتحان هذا الرأى لنعرف نصيبه من القوة والصحة .

قد يكون الانسان فاضلا ونصيبه من حرية الفكر نصيب منقوص ، ويكون

فاضلا،ونصيبه من الغيرة على الحق ، والجهاد له ، نصيب عادى ، ويكون فاضلا بالقناعة ، والعفة ، والامانة ، والصدق ، والجود .

لكن الرجل لا يكون تام الرجولة الا متى اخذته نفسه أخذاً صارما بفضائل طبعه ، واخلاقه،وايمانه الصارم،وهذا قانونه ..

فاذا لم يكن عفيفا كان مستحيا . واذا لم يكن شفوقا كان حليما واذا لم يكن ايثاريا كان محسنا.واذا لم يكن قنوعا،كان شهما،انوفا،واذا لم يكن رحيما كان عادلا ..

وقد حللنا اعجابنا بالفضائل وقلنا انه اعجاب بقيمة شيء نرى مشقة فى اكتسابه،وانتهينا الى ان الفضائل ترمز الى القوة،او تقرب ان تكون محاولة قوة .

اما اعجابنا بالرجولة الناضجة،فليس اعجابا بالقوة فحسب ، بل هو اعجاب بحرية هذه القوة فى اروع مظاهرها .

فالفضائل قوة بأثرها ، واشاراتها ، وغلابها للنفس،لأنها اكتساب وممارسة .

ولكن الرجولة طبع وفطرة .

والفاضل يقود نفسه ، او يقسرها.

والرجل تقوده نفسه ، وتقسره ، ويقوده طبعه القوى،وفطرته العارمة ، وايمانه الصارم .

فقوة الرجولة اذن قوة حرة ، تؤمن بحريتها ، ايمانا صارما .

ومعظم الفضائل،انحراف نفعى مستور . بمطالب النفس ، وانانيتها الخفية، وقد سبقت الاشارة الواضحة الى هذا .

ونحن نعرف الرجل بطبعه القوى ، وقانونه الصارم فى نفسه ، وضراوة فطرته المجردة،وباتزان خطوات هذه الفطرة،والاستجابة الاضطرارية لها .. نعرف الرجل بهذا ، وقد يكون مجردا من الفضائل الهنية المستحبة والمزايا الكسيحة ...

فالرجولة قوة فى ذاتها،ولكن الفضائل قوة بما فيها من سمات الشعر وشياته ، فهى قوة فى مجال الفتنة ، لذلك كانت بواعثها تهذيبية محضة .

ومن الامثلة التى تضرب فى هذا الموقف الدقيق للتقريب ، مثال رجل يملك ألفين فيجود بنصفها ورجل يملك واحداً فيجود بنصفه .

فالمقارنة المادية الجامدة تضع واهب الألف فى القمة،لكن المقارنة الفكرية الدقيقة ، تقدم عليه ضده،لأنه يهب مادة حياته ، ومادة امله ، فما يبقى له بعدما يهب ما تصيب به الحياة أقل مطالبها . وواهب الألف يهب ما لا تفقد بعده النفس أحفل هذه المطالب .

ذاك يهب من نفسه،وهذا يهب من ذخيرته الطائلة.

ذاك تكلفه نفسه ان يهب ، لأنه يستحى ألا يفعل فهو قوى وهذا يستجيب مختارا او مضطرا لما يجب ان يستجيب له الغنى المجدود،فهو اقل قوة .

ذاك يعطى من نفسه لا ليأخذ . وهل يحلم ان يأخذ بنصفه شيئا ؟ .

وهذا يعطى من ماله ليأخذ .. يأخذ اكبار الناس ، وبعد الصيت ، والمكان المرموق ، والمثل المضروب .

اذا دخل واهب الألف من باب الكرم ، والتضحية الضخمة ، والفتنة ، دخل واهب النصف من باب الرجولة الشامخة .

ففى الحياة اذن مسافات وامداء ما تقاس بالذراع ، لكن بمقاييس الفكر والضمير .

وانا اذا ذهبت أقيس الرجل بصداه فى جيله ، فانما قمت اقيسه بأفشل المقاييس ، واكثرها خداعا ، لأنى ناظر الى السعة الظاهرة،لا الى العمق المتخيل .

فالرجولة هكذا تكون مقلة ، ومنزورة ، وتكون ضعيفة ، وهزيلة ، فى منطق الموازين الجامدة،ولكنها القوة،والحياء .. والرحمة،والعدالة .. فى منطق الضمير ووزنه .

يتزحزح الفاضل بفضائله قليلا او كثيرا ، فلا تشيل كفته الراجحة فى العرف وموازينه بهذا الانحراف . لكن الرجل لا يستطيع الانحراف بهذا

القانون القائم فى دمه نارا ، قبل ان يقوم فى نفسه مبدأ وايمانا،فما يرضيه الحق حتى يكون حقا كله ، ولا الرحمة حتى تكون حسا لبواعثها فيمن يستحقها ، او فيمن يلتمسها ، ولا الحياء حتى تكون قوة تصد النفس عن مواطن الشبهات والصغائر والرذائل ، وحتى يكون قوة تذهب بالهمة فى اسمى معارج السمو.

ولو كان كل هذا ، او بعضه مستحيلا فى نظام الحياة المطرد ؟؟ ولو كان هذا كمال معنى الرجولة ، وتمامها ونضوجها .

وهذا قانونها !

أعود بكم الى تعريفى التمهيدى للرجولة .. فقد كان تعريفا رمزيا،أو كان تعريفا مدرسيا تبنى فيه النظرة على نتائجها ، التى هى الاسباب مجتمعة ، ولكنها ليست النظرة مفصلة .

قلت ان الرجولة مجموعة من الصفات الرائعة ، فى الرجل الرائع .

اما الرجل الرائع فهذا الذى جردت لكم الحديث عنه ، واقمت صورته عارية.واما الصفات الرائعة فهى : القوة . الجمال . والحق . القوة تقابل الحياء

والجمال يقابل الرحمة والحق يقابل العدالة

فالرجولة اذن قوة وجمال وحق

هذا قانونها

وهو قانون الحرية ايضا

وهو قانون الانسانية السامية

اما الفضائل فجمال فقط.

أحسبكم لا تجدون صعوبة فى موافقتى على تجريد الفضيلة من القوة دون الحق،ولكنى اجردها من الحق ايضا :

وأنا لا امتهن الفضيلة بهذا التجريد القاسى ، ولا اغض من قيمتها انما أريد التحديد . فاذا كانت الفضيلة تهب لتأخذ ، لم تكن قوة ، ولو كان هذا

الاخذ من وراء ستوره الكثيفة ، لذة فكرية،او متاعا نفسيا ، او مطلبا فكريا ..

واذا لم تكن الفضيلة ايمانا صارما بالتضحية،والجهاد الصادق للحق والعدالة ، لم تكن حقا ، ولو بقيت بعد جمالا ظاهر الفتنة للعيون،وصوفية تغنى المشاعر ، ولا تكون الضمير .

وهنا موضع التحرز من خطأ ، فلقد قلت فى مطلع حديثى ان الرجولة فى الطور الأول للحياة كانت صفة القادرين على الاحتيال لتوفير الطعام واقامة المأوى الواقى . وهى بهذا التحديد تكون مزية سابقة فى نشأتها لنشأة الفضائل ، او السجايا ، التى لا يجىء دورها فى النشأة منطقيا الا بعد اتساع افق الحياة،وتشعب مسالكها .

وقلت ان الغرائز فى الانسان مصدر أنانيته ، وان الانسان،الغريزى لا يتعدى حدود ذاته ، فلسائل ان يسأل،كيف كانت الرجولة طبعا وفطرة،وقانونا فى الدم ، وقد كانت انانية ؟

والجواب على هذا السؤال،

أنّ الرجل أنانى لا شك فى ذلك،ولكنه فى هذه الانانية عادل فهو ما يرضى ان ينال حقه ، حتى ينال كل حقه،وحتى يكون الحق مبدأ عاما،لحياة الجماعة، تساهم النفس فى الجهاد له بأقصى قواها،وبكل دوافعها،وليست لها من وراء هذا الجهاد لذة ولا متاع . يتجلى هذا فى دعاة الانسانية ، وفى الفلاسفة..وفى قادة الفكر ، والفنانين الموهوبين ، والعباقرة ، ورجال الثورات،والعلم والطب والاصلاح - فى اولئك الفقراء الضعفاء المشردين ، الذين تتنكر لهم الحياة حتى ما تبض بقطرة ، ويتنكر لهم الناس حتى ما يعرفون الرحمة. فاذا اصابوا من دنياهم شيئا ، فانما يكون القليل .

اولئك الذين يعد الفرد منهم حدثا بشريا هائلا ، وعاملا من اقوى عوامل الطبيعة ... لأنه جزء من تاريخ الحياة الجاهدة ، او جزء من تاريخ الانسانية .. او جزء من تاريخ امته .

ان الحياة لا تحابيهم بالنجاح الترابى الا نادرا ، لأنهم يحتقرون التراب ، انما تحابيهم بصفحاتها الذهبية اللامعة ، لا لأنهم الشذوذ والندرة ، بل لأنهم الرجال الذين يقيمون مآتم الحياة ، وأعيادها،ويقودون مواكبها ، وجحافلها .. والذين يعملون للحياة ، بالحياة او بالموت ، ومثلهم الاعلى الحياء،الرحمة ، العدالة ، اى القوة ، الجمال ، الحق ، أى الرجولة .

ولا ادرى من مِنَ المفكرين قال ان الرجل العظيم طفل ، لأنه لا يتصرف بقوته تصرفا ينطبق على مقاييس العقول الراجحة . ففى هذا القول اشارة الى ان الرجل اذا اخذته نفسه بقانون الحق والاستجابة للاعمال العظيمة الخالدة ، لم تكن التضحية عنده شيئا اختياريا يسير فيه على قواعد المنطق المرتب ، والرغبات الموزونة ، انما يكون مغلوبا على امره،ازاء قوة خفية فيه .

فسعد زغلول لم يكن أفضل المصريين خلقا ، ولا اعظمهم مواهب ، ولا اكبرهم فكرا ، ولكنه كان اكثرهم عنادا وتطرفا واصرارا على تحقيق ما يعمل له كاملا ، فهو اكثرهم رجولة .. كان يطمع فى الاستقلال التام،ولا يرضى بالحلول الجزئية على انها النهاية التى لا يبقى بعدها مجال للسعى والمطالبة .

ولو شاء ان يرضى بربع الاستقلال او بنصفه . لطابق بهذا منطق العقل والسياسة ، ولكنه لم يكن يرضى ان تكون امته ربع امة .. فهذا مظهر انانية الرجولة ..

وسقراط فى منطق العقل ، طفل لأنه شرب السم مختارا لئلا يتقهقر عن مبدئه .. فهو رجل يقهره دمه ، وقانون قوته ، على ألا يصانع فيما يراه حقا لا زما ..

ومن ينكر ان فلسفة العقل متى تسلطت على وزن الحقائق وتحليلها ، افقدتها كثيرا من طبيعة ايجابها وتأثيرها ؟

فلو لم تكن الرجولة قانونا فى الدم وفطرة ، لما عدت طفولةً لا تعبأ بنفسها فى سبيل استجابتها لمطالب قوتها القاهرة .

ها نحن نرى امة ، أمة نكرة بين الامم يعجزها النهضان ، ويصرفها لهوها

بالفضائل ،عن إنتهاج سبيل القوة والارتقاء ، وسبيل الحياة والسموّ،فأين القوّة والجمال والحقّ تأخذ بيدها ؟ .

أين الرجولة تأخذ بيدها،وتقيل عثراتها ؟

الرجولة التى كانت رمز القوة الفعالة فى الانسان القديم!

ورمز سجاياه ومحاسنه فى اولى وثباته الى التطور!

ورمز الحياء والرحمة والعدالة فى فجر مدنيته المنبثق!

ورمز المبدأ للعربى يوم نهض بأعباء رسالته التاريخية

أين الرجولة تأخذ بيدها وتقيل عثراتها ؟

الرجولة التى ورثها الصحابى الرجل ، عن ابيه العربى الرجل ، عن جده القديم الرجل ، فكانت عماد مبدئه الانسانى الذهبى .

الرجولة التى كانت النار المندلعة،والثورة الجائحة فى دماء صحابة محمد ﷺ، وفى دماء اعوانه ، وانصاره ، على الجهاد للحق والقوة والمبدأ .

الرجولة التى طبعت كل شىء حولها بطابعها الجبار .

الرجولة التى دوت بها صرخة قائد البشرية الكامل محمد ﷺ،فافترع بها قمة المثل العليا،يوم قال :

«والله ياعم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الامر ما فعلت ، حتى يظهره الله ، او اموت دونه» او اموت دونه!

هكذا يقول قائدنا الكامل البطل . بل قائدنا الكامل الرجل .

فهذه رجولة رجل ، قبل ان تكون فضيلة نبى،وقانون دم قبل ان يكون سمة خلق فاضل ، وعقيدة مؤمن يستهين الموت فى سبيل التراجع المفروض عليه دونها . غير ناظر الى الجزاء ..

هذه قوة . وجمال . وحق . حياء . ورحمه . وعدالة .

حياء من الهزيمة فى الحق ،

ورحمة للجاهلين بالحق ،

وعدالة تأخذ للحق بالحق،

ألا فلتكن دستورنا،كلمة قائدنا الكامل الرجل . لتكن فينا فضيلة الفاضل ، وغيرة الغيور ، ومبدأ المصلح،وفكرة الأديب وعقيدة الوطنى الحر ، جهادا يظهره الله ، او نموت دونه ..

الا ولتكن الرجولة بقانونها الصارم ، عماد هذا الجهاد

ولاتكن فضائلنا واخلاقنا،ألاعيب يتنكب بها ميادين الجهاد والنهوض بأعبائه ، ولا فخاخا تقتنص بها اللذة والصيت ، والفتنة ، ولا أملاً مطمئنا نخلد به الى الراحة والهدوء .

فلا فضيلة بلا ايمان ، ولا إيمان الا بالعمل،ولا عمل الا بالقوة،ولا قوة الا بالرجولة .

ألا فلا تكن الفضيلة ايمانا،بل مسعى صادقا لاظهارها ، ونشر لوائها،فما تكون الفضيلة استقامة،حتى تكون مبدأ يظهره الله او نموت دونه ..

ألا وان فى عنق كل منا رسالة ، لا تتم الامانة الا بأدائها ، وباقامة منارها ، وبالكفاح لنصرتها ، ودحض نقائضها .

ألا وان تاريخ كل امة حية يقيم اليوم عيده البهيج .. فهل ترضى رجولة الرجال فى هذه الامة أن يقيم تاريخها مأتمه الباكى؟..

سادتى ـ اخوانى

رددوا معى : أين التربية .. أين المدرسة .. أين الرجولة .. لتعرفوا لماذا يقيم تاريخنا مأتمه الباكى ؟

[illegible]

✽ الصفحة الاخيرة من مخطوط كتاب الرجولة بخط يد المؤلف.

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب	المؤلف
* الجبل الذي صار سهلاً	المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
* عهد الصبا في البادية	الأستاذ عزيز ضياء
* التنمية قضية	دكتور محمود محمد سفر
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	دكتور سليمان الغنام
* الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
* الدوامة (قصة طويلة)	دكتور عصام محمد علي خوقير
* غداً أنسى (قصة طويلة)	دكتورة أمل محمد شطا
* موضوعات اقتصادية معاصرة	دكتور علي بن طلال الجهني
* ازمة الطاقة إلى أين؟	دكتور عبد العزيز حسين الصويغ
* نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
* إلى ابنتي شيرين	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* رفات عقل	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* شرح قصيدة البردة (دراسة وتحقيق)	دكتور محمود زيني
* عواطف انسانية (ديوان شعر)	دكتورة مريم البغدادي
* عمارة المسجد الحرام	المرحوم الأستاذ حسين باسلامة
* وقفة	دكتور عبد الله حسين باسلامة
* خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
* طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
* عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري

* الحضارة تحدٍّ — دكتور محمود محمد سفر
* لحظة ضعف — الأستاذ فؤاد صادق مفتي
* الرجولة عماد الخلق الفاضل — المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* أفكار بلا زمن — الأستاذ عبد الله الحصين
* علم إدارة الأفراد — الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
* الإبحار في ليل الشجن [شعر] — الأستاذ محمد فهد العيسى
* التنمية وجهاً لوجه — دكتور غازي القصيبي

■ تحت الطبع

* قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي
* نبض.. — الأستاذ عبد الله جفري

* السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام محمد علي خوقير
* عام ١٩٨٤ لجورج أورويل [ترجمة] — الأستاذ عزيز ضياء
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
* حصاد عمر وثمرات قلم — الأستاذ محمد حسين زيدان
* مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
* التاريخ العربي وبدايته — الأستاذ أمين مدني
* قصص من سومرست موم — الأستاذ عزيز ضياء
* مجلة الأحكام الشرعية — دكتور عبد الوهاب سليمان
* أيامي.. — الأستاذ أحمد السباعي
* ماما زبيدة [مجموعة قصصية] — الأستاذ عزيز ضياء
* خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله بوقس
* مدارسنا والتربية — الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
* السنيورا (قصة طويلة) — الدكتور عصام محمد علي خوقير

* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — دكتور حسن محمد باجودة
* النفس الانسانية في القرآن — الأستاذ ابراهيم سرسيق

الكتاب الجامعي

صدر منها : —

* النمو من الطفولة إلى المراهقة — دكتور محمد جميل منصور، دكتور فاروق سيد عبد السلام
* النفط العربي وصناعة تكريره — دكتور أحمد رمضان شقلية
* الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب ايطاليا — دكتور عبد المنعم رسلان
* الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — دكتور مدني عبد القادر علاقي
* الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق [باللغة الانجليزية] — الدكتور : فؤاد زهران، الدكتور : عدنان جمجوم، الدكتور : محمد عيد
* علاقة الآباء بالأبناء [دراسة فقهية] — دكتورة سعاد ابراهيم
* الملامح الجغرافية لدروب الحج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
* مبادئ القانون لرجال الأعمال في المملكة العربية السعودية — دكتور محمد ابراهيم أبو العينين

* الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
* القضايا التربوية في المملكة العربية السعودية — دكتور عباس نتو
* هندسة النظام الكوني في القرآن — دكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — دكتور لطفي بركات أحمد

رسائل جامعية

■ تحت الطبع

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — أميرة علي المداح
* بيان خطأ من أخطاء علي الشافعي — دكتور نايف هاشم الدعيس
* المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي — دكتور نايف هاشم الدعيس
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* السيوطي ومنهجه في فقه اللغة — الأستاذ محمد يعقوب تركستاني

مطبوعات تهامة
PUBLICATIONS

صدر منها : ـــ

* حارس الفندق القديم — الأستاذ صالح ابراهيم

■ تحت الطبع

* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — دكتور محمود الشهابي
* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام. — الأستاذ أمين ساعاتي

* خطوط وكلمات [رسوم كاريكاتورية] — الأستاذ علي الخرجي
* القرآن ودنيا الانسان — الأستاذ صلاح البكري
* الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* ألوان — الأستاذ أحمد الشريف الرفاعي
* التخلف الإملائي عند التلميذات — الأستاذة نوال قاضي
* وللخوف عيون — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخواطر — الأستاذ أحمد طاشكندي

كتاب للأطفال

صدر منها:

* القرد
* الضب
* الثعلب
* الكلب
* الغراب
* السلحفاة

تحت الطبع:

* الأرنب
* الحمار الوحشى
* الجمل
* الأسد
* الذئب
* البغل

للاستاذ يعقوب اسحاق